obeikan.com

مجمع أديان (اليتيم)
مجموعة قصصية
هشام فايز
الطبعة الأولي .. ٢٠١٣

الغلاف : هشام فايز
دعم فني : أسامة علام
اخراج داخلي : الحلم للدعاية والاعلان

رقم الإيداع : ٢٠١٣/٧٦٨٨
الترقيم الدولي : 978-977-6412-23-1

الحلم للنشر والتوزيع
٤ شارع الأشراف من شارع مؤسسة الزكاة - المرج
محمول : 01141824562
dar_el7elm@hotmail.com

obeikan.com

مجمع أديان

هشام فايز

obeikan.com

obeikan.com

المحتويات

٩ الإمام
٢١ اليتيم
٣١ مجمع أديان
٤١ لا أعرف
٤٩ من أنت
٦٣ الكلب

obeikan.com

obeikan.com

الحق كالسيف القاطع

لا يعرف الميل حين يحسم أمرا

obeikan.com

obeikan.com

الإمام

خلف مكتبه الخشبي القديم جلس كعادته بوقار، يلبس ثوب رجال الدين المعهود منذ قرون، عمامة وجبة بنيّة ذات خطوط طولية رفيعة، جلس ممسكا بورقة صغيرة يتأملها بعمق ويداعب لحيته الهشة التي لم ينم منها سوى شعرات بيض من ذقنه، وينظر من خلف منظاره الطبي الرفيع ليقرأ الرسالة التي تستفتيه ويقرأ السؤال مرارا حتى يفتى في الأمر، كان السؤال يقول «شاهدت واقعة اعتداء، وطلب منى المجني عليه أن أشهد بما رأيت، ولكن الجاني رجل خطير وأنا أخشى شره وبطشه، فهل يتحتم علىّ أن أذهب إلى الشهادة؟»

كان الشيخ يقرأ السؤال في حيرة، ليس لأنه لا يعلم الإجابة ولا لأن السؤال صعب، ولكن لأنه لا يعرف أي نوع من البشر هؤلاء؟!، هل هناك من يمكن أن يكتم شهادة حق؟ هل هناك من يخاف بشرا أكثر مما يخاف الله؟

أخرج ورقة بيضاء وكتب فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم يقول الله تعالى « وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ «، أما إن كنت تخاف قول الحق في وجه ظالم فالأولى بك أن تخاف الله، وأما إن كنت تخشى الموت فالأولى بك أن تخشى أن تموت وتلقى ربك وأنت كاذب أو شاهد زور أو كاتم شهادة، كل ما سوف

obeikan.com

تلاقيه على يد هذا الظالم من أذى فلك به جزاء حسن عند الله، وأما إن كان خوفك الظالم وبطشه سيمنعك من قول الحق فالله تعالى يقول « إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ »

كانت هذه السطور هي صدر الفتوى التي أخذ يكتبها ويسوق إلى البراهين بينما كان ابنه الصغير يجلس في فصله الدراسي حين دخل مدير المدرسة الفصل فجأة وسأل:

- هل هناك من لم يأت بالمصروفات

وقف الولد الصغير في حرج وقال:

- أنا

قال المدير معاتبا:

- لم تخلفت؟ ألم أبلغكم جميعا أن اليوم هو آخر ميعاد لكم؟

قال الولد معتذرا:

- والدي قال لي إنه سيأتي بها غدا

قال الرجل في جفاء:

- إما أن يأتي والدك بها غدا وإما أن لا تأتى إلى المدرسة أبدا

كان الشيخ لا يزال يخط فتواه وهو يقول:

إن كنا جميعا سنكتم الحق ونخاف على أنفسنا وأهلينا وأولادنا من الأذى فكيف سيرجع الظالم عن ظلمه؟ وكيف سنرد المظالم إلى أهلها؟ وكيف سنرجع إلى الضعيف حقه؟ إن خوفنا من مواجهة الظالم هو ذاته ظلم بيّن، وهو عون له على التمادي في غيِّه

كانت والدته تحدث زوجته في ذلك الوقت وتقول:

- هل نام الصبي؟
- ليته ينام، ولكنه لا يستطيع النوم من فرط الألم
- إلى متى يستمر هذا العذاب
- صبرا يا أماه، قريبا إن شاء الله ستُجرى له الجراحة وتنتهي معاناته

obeikan.com

- قريبا! أنى يكون قريبا ونحن لا نملك نفقات الجراحة

- لا تقلقي، زياد سيتكفل بها

- زياد! آه يا ولدى، إلى متى سيتكفل بهذا الحمل وحده، أرهقناه بتكاليفنا، إنه يحمل ما لا يطيق، ألا يكفي نفقات علاجي، من أين سيأتي بكل هذه النفقات، ليته عمل بالتدريس بدلا من الإمامة

- أنت أدرى بولدك منى، وتعلمين أنه لم يكن يوما طالب مال أو شيء من عرض الدنيا، ولم يشتغل بالإمامة إلا قربة إلى الله

- أجل هو ولدى وأنا أدرى الناس به، وأعلم كم يتحمل من أجلنا ولا يشكو، ولكن من الآن يجب أن أزيح العبء عن كاهله، سأتوقف عن غسيل كليتيّ من الآن، ولتدخروا النفقات لجراحة الصبي

- ماذا تقولين يا أماه، والله لا يكون هذا أبدا، حتى لو ادخرنا نفقاتك فهي لن تكفي لإجراء الجراحة وولدي ليس أغلى عندنا منك، قلت لك لا تقلقي، زياد سوف يقترض المال من أصحابه، سيفعل أي شيء، وستجرى الجراحة للصبى إن شاء الله

كان الإمام لا يزال يخط فتواه بتلك السطور:

- ولهذا، ولخوفي عليك من عذاب الله ونقمته وغضبه، أوصيك ونفسي بتقوى الله، وألا تخشى في الحق لومة لائم وأن تجهر بالحق في وجه الظالم، حتى لو كلفك ذلك حياتك، إن كنت تخاف على أولادك فقل الحق يرعهم الله لك، ولتعلم أن أفضل الجهاد هو كلمة حق عند سلطان جائر، يكفي أن تموت في سبيل الحق، وتلقى ربك على الحق، ولتعلم علم اليقين أن ربك سبحانه وتعالى هو الحق المبين

وأكمل سطورا أخرى ثم أنهى فتواه وقام وأستبدل ملابسه، وارتدى القميص والسروال، وخلع ثياب الإمامة ولكن الإمامة مستقرة في قلبه، ثم خرج إلى الطريق وسار طويلا حتى لحق بجموع حاشدة، كانت الجموع تجوب شوارع العاصمة تندد بالظلم والفساد والقمع وهو يسير معهم

يهتف ويجهر بالحق، كان وراءه هم ثقيل في بيته ولكن كل هذه الهموم لم تمنعه من أن يترك كل ما يشغله وراء ظهره ليرى ويشعر ويتألم لما يجرى للآخرين، فقراء لا يجدون ملجأ ولا مورد رزق ومساكين موائدهم من صناديق القمامة ونساء وأطفال وعجائز مشردين في الطرق بلا عائل، كان يشعر بكل مريض لا يجد الرعاية ولا الدواء، فخرج يطالب بحقوق الناس لا بحقه، خرج من أجل حقوق الضعفاء واليتامى والأرامل والمعاقين ومن أجل العدالة والكرامة، أخرج علمه الصغير وحمله بيده الرحيمة وحمل معه حب وطنه ،وطنه الذى لم يوفه أقل حقوقه ليجري الجراحة لولده ومع هذا فقد أصر أن يعطى وطنه حقه كاملا، فمشى يردد هتافا صدر من قلبه، ومن ضميره الصادق، هو نفسه الضمير الذى أصدر الفتوى منذ دقائق ثم جهر بها علنا في الصفوف الأولى، ليقول الحق في وجه الظالم وليس من خلف مكتبه

وأسفل منزله تجمع بعض الصبية يلعبون، وبعد ساعة من اللعب توقف أحدهم وقال:

- كفى لعبا، أنا ذاهب إلى المنزل، لأراجع ما أملاه الشيخ علينا

سأله صبي آخر:

- هل تقصد الشيخ زياد؟

- نعم

قال آخر:

- ولكن لا يزال الوقت متسعا أمامنا، لن يأتي الشيخ إلا في المساء

- نعم أعرف ولكن أريد أن أراجع ما أملاه علينا من القرآن، لقد وعدته أنى سأحفظ الآيات كاملة هذه المرة ودون أي خطأ، لا أريد أن يعاتبني

- حسنا فلتذهب أنت، أما نحن فسنلعب قليلا

كان الشيخ يمسك علمه الصغير ويرفعه عاليا كعلو جبينه الذي لم يذل ولم

يخضع قط، جبينه الذي أضاء بعلامة الصلاة وبالعزة وبالكرامة، كان مزيجا مدهشا أن ترى هذا الشموخ في نظرته وفى جبهته المرفوعة، وهذا البِشر والابتسامة التي لا تفارق شفتيه حين يتحدث، كان من أكثر الناس على وجه الأرض تواضعا ولينا وسلاما

أخذ يردد الهتاف بصوته الضعيف الذى لم يعل قط حتى في أشد لحظات غضبه، وذاب في جموع من الناس لم يدر أي منهم أن هذا الذى يهتف معهم في مقدمة الصفوف هو الإمام والخطيب، وهو شيخ المسجد وصاحب الفتوى، لقد انضم إليهم راجلا ولم يهبط من سيارة طويلة مكيفة، لم يكن أحد يتخيل في هذا الزمن أن ينزل الشيخ من فوق منبره أو يقوم من خلف مكتبه ويترك كرسيه الوثير ومكيف الهواء ليتقدم الصفوف فيكون أول من يفعل ما يأمر الناس به، ويكون أول من يلتزم فتواه، ذلك لأنه لا يرى نفسه ملكا ولا نبيا ولا ذا قداسة، بل يرى نفسه بشرا مثلهم وفردا منهم، حياته ليست أغلى من حياتهم، لم يكن أبدا ليترك الآخرين يموتون ليحيا هو ولا يجوعون ليشبع هو، بل سيكون أول من يضحى بحياته في سبيل الآخرين، وما قيمة خطبه وفتاواه إن لم تصغ عملا نافعا ؟، لم يكن من الذين يقولون ما لا يفعلون، بل كان ضميره يدفعه دفعا حتى يكون في المقدمة مادام هو المعلم والقدوة دون بحث عن زعامة أو بطولة من رياء، بل لأنه يبتغى مرضاة الله بعمله، عمله الذى نبع من قلبه، ولم تفرضه عليه جهة أو تيار أو جبهة أو جماعة، بل فرضه عليه إيمانه الذى جعله يتقدم الصفوف ليكون أول من يواجه الخطر بصدر مكشوف وبيد لم تمتد إلا بالخير والسلام ولم تحمل سلاحا سوى الحق والكلمة وعلم بلده الصغير

دق الباب فقال الرجل الوقور ذو اللحية البيضاء القصيرة:

- ادخل

اندفع مساعده وهو يقول:

- سيدي هناك جموع كثيرة تجوب العاصمة، هل أعطى الأوامر

بالنزول والمشاركة

شبك الرجل أصابعه في هدوء ونظر من خلف منظاره الطبي وقال:

- ليس الآن، يجب أن ننتظر

- إلى متى يا سيدي؟

قال بنفس الهدوء:

- يجب أن نتفاوض أولا

- هلا أمرتني كي أجرى اتصالات بهم؟

هز رأسه نفيا وقال:

- كلا، بل هم الذين سيفعلون

- وماذا لو لم . .

رن الهاتف فجأة فقطع حديثه وابتسم الرجل في ثقة وأجاب:

- السلام عليكم، . . لا لم نحسم أمرنا بعد، . . لا مانع لدينا ولكن لنا بعض المطالب، . . أظن أنكم تعلمون كثيرا منها. . حسنا. . اتفقنا

أنهى المكالمة فسأله مساعده في لهفة:

- ماذا؟ هل نشارك؟

أجاب الرجل بهدوء وابتسامة:

- كلا

- ولكن!

قال الرجل بلهجة قوية دون أن يفقد هدوءه:

- قلت كلا، سيلبون مطالبنا

- سيدي كيف سنواجه الجميع إذا؟ وبأي شيء سنتعلل؟

- سنجد علة ما

قال مساعده في قلق:

- ولكن! أتراهم يقنعون؟

ابتسم الرجل في ثقة أكبر وقال:

obeikan.com

- لا تقلق، سيقنعون

ثم أكمل في ثقة:

- وسيطيعون

كان الشيخ لا يزال يردد هتافا يندد بالظلم ويطالب بالحق والعدل، لقد جهر علنا بما يراه الحق، بلا تلون ولا نفاق ولا مداجاة ولا مداهنة، فهو لا يتبع إلا الحق، والحق كالسيف القاطع لا يعرف الميل حين يحسم أمرا، لذا فهو لا يفاوض ولا يهادن ولا يداهن، حتى اجتمعت الحشود كلها في ميدان واسع

وعلى سطح بناية عالية كان هناك شخص ملثم يمسك بندقية ويتحدث إلى آخر عبر جهاز اتصال ويستمع إليه وهو يقول:

- هل تراه؟
- نعم سيدي، أراه
- لا ينبغي أن تخطئه
- لن يحدث أبدا سيدي
- أعطني الخبر اليقين حين تنتهي
- أمرك سيدي

وزحف الشخص المجهول على بطنه وصوب بندقيته القناصة نحو الجموع الغفيرة بينما كان جيران الشيخ مجتمعين يتجادلون فيما بدا أنه جلسة صلح ويقول أحدهم:

- ما حكمت به هو الحق، عليكما أن ترضيا حكمي

قال أحد طرفي النزاع:

- حكمك هذا يهضم حقي
- ألا ترضى بحكمي وأنا كبيركم!
- أجل، لا أرضاه

تدخل آخر وقال:

obeikan.com

- ماذا تقول؟
- أقول لا أرضى بما حكم به، لست أنا المخطئ

قال غريمه:

- ومن غيرك؟!
- هذا ظلم لي

قال شيخ كبير:

- حسنا بحكم من ترضى إذا؟

قال بلا تردد:

- بحكم الشيخ زياد

سأل الشيخ غريمه:

- وأنت؟ هل ترضى بحكم الشيخ زياد؟
- أرضى به، وما يحكم به الشيخ هو سيف على رقبتي
- حسنا لننتظر حتى يأتي الشيخ زياد

نسى الإمام كل من ينتظرونه، وسعى من أجل شيء أعظم وأجل، والقناص يصوب بندقيته من أعلى ومنظاره يقرب موضع الطلقة من جسد الشيخ الذي لا يزال في الصفوف الأولى لا يخشى أحدا سوى ربه، ولا يخاف الأذى ولا يهاب الموت

أغلق القناص عينا وهو يصوب على صدر الإمام بدقة حتى يطلق طلقته الوحيدة التي يجب أن تستقر في قلب الشيخ كما جاءه من الأمر، واستقرت بندقيته صوب الشيخ وثبتت يده وكتم أنفاسه

دق الباب بشدة ففتحت زوجته في ذعر فإذا رجل يسأل عن زوجها فأبلغته أنه لم يأت بعد، وحين سألته إن كان يريدها أن تبلغه شيئا قال:

- لقد حاولت الاتصال بالشيخ ولكنه لا يجيب
- ربما لا يسمع الهاتف أو أنه مشغول الآن، لقد دخل وقت الصلاة
- لقد كنت قريبا من المنزل ففكرت أن أمرّ به لأذكره أن غدا هو

obeikan.com

موعدنا لزيارة دار الأيتام

- اطمئن، هو لا ينسى هذا الموعد أبدا

- أعلم هذا ولكنى أردت الاطمئنان فحسب، فأموال التبرعات في حوزته، سأعاود الاتصال به، أبلغيه سلامى

أغلقت الباب وقالت أمه:

- أسفى عليك يا ولدى، في حوزته المال ولا تمتد يده إليه ليجري الجراحة لولده

- ما كان زياد ليمد يده على فتيل ليس له، الموت أهون عليه

- أليس مضطرا وله في ذلك رخصة

- لقد جادلته من قبل وأصر أن اليتيم ليس لديه من يكفله، أما ولدنا فله أب وأم، لو كان زياد يقبل الرخصة أو يتجانف عند الضرورة لأطاعهم حين عرضوا عليه أن يغير فتواه ضدهم ليجروا الجراحة للصبى على الفور وفى أفضل المستشفيات، ولكنك أعلم بأمر زياد منى، لقد أخبرهم أنه يفضل أن يموت ولده على أن يموت ضميره

كان وقت الصلاة قد حان، فتوقفت الهتاف واصطف الناس، كان هو الأقرب للمقدمة فقدمه الناس ليؤمهم دون أن يعرفوا من هو، لم يقدموه لأنه الإمام فلم يعد هناك شيء يدل على هذا لا عمامة ولا جلباب ولا حتى لحية كثاء، ولكنهم رأوه يحمل كل ما يحمل الإمام الحق من صفات، كان يحمل قلبا صادقا شجاعا وصوتا صادحا بالحق وضميرا حيا، وهل يكون الإمام غير ذلك؟ عارضهم أن يتقدمهم ليؤمهم، فهو يرى أنه آخر من يستحق الإمامة، هو الإمام العالم صاحب الدراسات والإجازات وهو الخطيب المفوه والعابد الذى يقضى ليله في الذكر وفى صلاة خفية كانت تقواه وخوفه من الله يخيلان إليه أنه أقل الناس درجة، لم يفرح أو يزك نفسه قط ولم يكن مختالا بعلمه ولا بلبسه وعمامته ولحيته، بل كان يضرع إلى الله دائما في رغب ورهب في السر دون العلن، لم يشعر قط أنه أفضل من الآخرين وكم كان

obeikan.com

يفزع حين ينحني أحد ليقبل يده ويعاتبه على هذا، وكم شغلته ذنوبه عن النظر إلى ذنوب غيره، ثم تقدم حين أصروا في تواضع وفى قلبه حب للحق أكبر من أي حب للإمامة أو للشهرة أو للمال، لقد كان أسبقهم إلى السعي والعمل والجهاد فكان أحقهم بالإمامة

وعلى إحدى قنوات التلفزيون كان الرجل ذو اللباس الأبيض وغطاء الرأس الأبيض واللحية العظيمة التي تغطى وجنتيه وتكاد تبلغ عينيه، كان يزفر غضبا ويصيح بصوت غليظ هادر ويقول:

- أقسم بالله العظيم لا تستقيم الجماعة ولا يتحقق الأمن إلا بطاعة ولى الأمر، والله الذي لا إله إلا هو إذا خلعت الولاية عمت الفوضى وهذا هو الهلاك العظيم وإن زينوا ذلك لكم أنه إصلاح وحرية فهذا ليس سوى ركيزة ركزها الكفار، هذه التظاهرات فتنة وهذه الفوضى من المفاسد العظيمة فلا تستمعوا إلى المفسدين ودعاة الضلال واتركوا هؤلاء الغوغائيين، فهذه الفتن لا يغتر بها سوى الجاهل أو صاحب الهوى، عليكم بالسمع والطاعة وإن ضربت ظهوركم وأخذت أموالكم حتى تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله سلطان

وأنهى حديثه وخرج إلى الشارع يتأفف من الحر ويهرول إلى سيارته الفخمة وهو يمر بين الناس على جانبي الطريق، فقراء يفترشون التراب وأرامل يتسولن بمناديل ورقية وأطفال شوارع وأيتام لا يعرف لهم أهل، ومقاهي تكتظ بشباب عاطل في ربيع العمر لا يجدون عملا ولا يستطيعون الزواج، مر بسرعة وكأن منظاره الشمسي الثمين يحجب عنه رؤية هؤلاء، حتى وصل إلى سيارته فقفز داخلها وأغلق بابها بسرعة لينعم مرة أخرى بالهواء البارد ويقول للسائق:

- إلى الفيلا
- فيلا المعادي؟
- بل فيلا أكتوبر

كان الإمام يشرع في الصلاة بينما استقر منظار القناص المقرب على صدره وظل يصوب بدقة قصوى، وكان آخر ما قرأه الشيخ في صلاته « قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ »، وانطلقت الطلقة التي لم تمهله حتى يكمل الآية حين ضغط القناص الزناد بقوة وثبات، فانطلقت الرصاصة لتشق الهواء وتخترق صدر الشيخ فيقطع قراءته ليشهق شهقة واهنة وأخيرة ويفزع الناس من مشهد الدم فيفرون ويتخبطون، وتقع الأطباق من يده زوجته فتنكسر على الأرض، وينقبض قلبها بعنف وكأنها استشعرت أنها قد أرملت، وأن الوقت قد حان لتحمل هم طفلين وامرأة عجوز مريضة بلا زوج ولا سند، ويسقط الإمام الشهيد وتسيل دماؤه الزكية على الأرض ويتعفر جبينه الحر في التراب، ويبدأ القناص اتصاله ليؤكد أنه أتم الأمر فيأتيه أمر آخر كي يفر ويختفى طويلا

وتنزوي أمه تفكر أن موتها سيريح ابنها من عبئها دون أن تدري أن أجله كان أقرب من أجلها وأنها ستحيا أيامها الباقيات ثكلى بعد أن فقدت ولدها وعمادها، ويفر الناس من الفزع ويقطع الباقون صلاتهم ويلتفون حول الشيخ الذي لم تفارقه ابتسامته أو بدا وكأنه يبتسم حتى وهو يفارق الحياة، وينظرون في كل صوب ليعرفوا من الجاني؟ أي يد آثمة تلك التي سفكت دم الإمام؟ وتتعالى الأصوات تستغيث بالنجدة والإسعاف، فيأتي صوت متهدج بالبكاء ليقول:

- لا جدوى لقد فارق الحياة

ويسبل جفنا الشيخ الشهيد بعد أن فارق الحياة برصاصة مزقت صدره فأودت بحياته ليدفع من دمه ثمن كلمة الحق، لقد كان اختياره، أن يترك زوجته ويفارق أبنائه وهم في أشد الحاجة إليه، حين رفض أن يجلس خلف مكتبه على كرسي وثير يصمت على الظلم ويصدر فتاوى تخالف ضميره ثم يرجع إلى بيته سالما يتبختر في رداء الإمام، يقبل الناس يده قبل رأسه ويتمسحون بسيارته وفى الليل ينعم بالدفء في حضن زوجته وأمه وولديه

كانت زوجته لا تزال تراقب الصبي الصغير وهو يتألم وتنتظر زوجها لتخبره أن الجراحة لم تعد تحتمل التأجيل، وابنه يترقبه في قلق ليبلغه بأمر المصروفات العاجل وهو لا يدري أنه ضم أباه وقبله صباحا قبل أن يذهب إلى المدرسة والآن لم يعد له إلا الله وقد أمسى بلا ولى ولا عائل وغدا يتجرع مرارة اليتم طفلا

وفى الليل وقبل وصول الخبر، كان الأطفال يجلسون في المسجد يتلون آيات من القرآن في انتظار المعلم، وكل منهم يسترجع ما استظهره من الآيات وتفسيرها كما علمهم شيخهم أنهم كما حفظوا كلمات الله فعليهم أن يفهموا معانيها ويعملوا بها

أما الجيران فقد أجمعوا أنهم سينتظرون حكم الشيخ الذي لا يحيد عن الحق أبدا وسيرضون حكمه أيا ما كان، كانوا جميعا ينتظرون وهم لا يعلمون أن رصاصة واحدة قتلت الابن والأب والزوج، وأودت بحياة الجار البار والمصلح بين الناس، قتلت الشيخ والمعلم والإمام، كثيرون هم من ينتظرونه، ولكنه لن يأتي أبدا

فقد كان جثمانه يرقد في سلام تحت غطاء أبيض كبير تعلو وجهه السمح شبه ابتسامة وعلى الأرض حيث انتهت حياته كانت دماؤه الزكية تمتزج بتراب وطنه لتشهد على صدقه، وكأن موته كان الدرس الأخير، الدرس الذي دفع ثمنه من دمه ومن بكاء أمه الثكلى وفجيعة زوجته ويتم طفليه الصغيرين، لقد كان معلما في حياته وحتى في موته

التقط الرجل الرسالة الواردة وفضها ليجد بها الفتوى التي خطها الإمام والتي تجيب على سؤاله، فقرأها حتى آخر سطورها التي كانت تقول:

«ولا يغرنك كثرة الراكعين أمام الظلم، فمهما استبد الظلم فإن الحق سوف ينتصر، كن صادقا مع الله، وإياك أن تخضع لغيره فتحيا ذليلا وتموت ذليلا، الناس لا يموتون حين تقبض أنفسهم ولكنهم يموتون حين تموت ضمائرهم، فحسبك أن تحيا من أجل الحق، أو أن تموت من أجله»

اليتيم

لا يكاد يذكر سوى بعض أطياف متداخلة، بعضها قوى وبعضها باهت، أطياف تنبش ذاكرته فتبعث الماضي ليغزو عقله حينا ويعصف بصدره حينا آخر، جلس على الأرض وهو يتذكر كان يلعب بحصانه الخشبي المكسور الذي وجده وهو يعبث بين أكوام القمامة والمهملات وهي تجلس إلى جانبه تسعل بشدة وتمد يدها إلى المارة وتستجدى عطفهم ليعطوها صدقة، وكانت كلماتها المقهورة تصف حالها وهي تقول:

- أرجوكم، لا أسأل الكثير، فقيرة ومريضة وجائعة

فيقف من يرق لها فيعطيها، ويمر من لا يأبه لها كأنه لا يراها ولا يسمعها، ويحدقها آخر بحنق ويتأفف فلا هو أعطى ولا تصدق بكلمة طيبة

- أمي، أنا جائع
- حسنا قم معي

حملته على كتفها فتشبث برأسها بكلتا يديه وهو يستمع إلى سعالها المتكرر ويشاهد العالم من فوق كتفها، رجالا ونساء يسيرون وأطفالا يلعبون وخزانا عاليا للمياه يرتفع إلى السماء، وهو يشاهد هذه الصور ولا يكترث لها، فهي وحدها كل العالم لديه

جلسا على الأرض واقتسمت معه رغيفا فأعطته الجزء الأكبر، نظر إليها فابتسمت وقالت:

- كل، كل حتى تشبع وتكبر وتصبح رجلا

obeikan.com

فمد يده وأكل ثم شعر بالنعاس، وآخر ما شعر به هو صدرها الدافئ الذي احتواه، ويدها التي تربت على ظهره حتى غلبه النوم بين ذراعيها الواهنتين ولكنهما كانتا الملاذ الأمين له وكانتا حصنه المنيع في هذه الحياة، لم يخف قط وهو معها حتى وهما يجلسان في الطرق بلا مأوى

في يوم كانت الأمطار تهطل بغزارة وهي تمسك قطعة خشبية رقيقة تحميه بها من الأمطار وتحاول أن تحتمى بشيء منها ولكن نصيبها كان الجزء الأصغر، وظل ينظر إليها والأمطار تبللها وهي كالعادة تبتسم وتربت على كتفه ليشعر بالأمان فيطمئن وتسعل هي بعنف

ذكريات تتداعى وتتسلل من مكان عميق في نفسه وهو يجلس وحيدا كعادته لا يتكلم ولا يتحرك كثيرا، لذلك يلقبه زملاؤه بالأخرس، لأنهم يجهلون أن كيانه يختلج بالأحداث والأحاديث التي لا تنقطع ولكنها لا تجاوز عقله إلى لسانه أبدا

- أمي أنا جوعان

- حسنا اليوم جمعت الكثير من المال، سأشترى لك طعاما طيبا، ماذا تشتهى

أخذ يسترجع صورا من ذاكرته لتلاميذ يراهم في الشوارع وقت خروجهم من المدارس وكيف يلبسون ويأكلون ثم أجاب:

- أريد بعض الحلوى المثلجة ذات الألوان، هل تعرفينها

ابتسمت بحنان وقالت:

- أجل، أعرفها

ثم أخذت تعد ما معها من المال ثم قالت:

- سأشتريها لك

تهلل فرحا وأخرجت علبة الدواء المسكن، إنها فارغة، أخذت تعد المال مرة أخرى وتجهمت، ثم نظرت إليه مرة أخرى وإلى السعادة في عينيه ثم اصطنعت ابتسامة وهي تؤكد:

- سأشتريها لك

وفى ركن ذي ظل من بيت متهدم دائما ما كانت تلجأ إليه لتحتمي به وطفلها من المطر أو تستظل به من الشمس، جلسا على الأرض معا وأسند ظهره عليها وهو يأكل الحلوى ويلتفت إليها ويقول:

- إن مذاقها طيب

ثم يمد يده إليها بالحلوى فتردها إليه وتقول بابتسامة رفق:

- كل أنت يا حبيبي

وكالعادة يأكل ويستريح وتضمه إلى صدرها فينام

كل هذه الذكريات تتوافد على ذهنه وهو يجلس على سطح الدار وحيدا ينظر إلى زملائه الذين يلعبون في الفناء ويأتي فريق منهم ينادونه:

- ألا تنزل فتلعب معنا؟

فيهز رأسه نفيا فيتركونه وحيدا ويلعبون ساعات وهو يجلس في صمت، حتى يأتي المساء ويدخلون جميعا إلى عنابر النوم وتطفأ الأنوار ولكنه يبقى مستيقظا وشاردا وكأنه يأبى أن ينام

وتظل هي بابتسامتها الحانية تصر أن تقتحم ذهنه في آخر يوم رآها قبل أن تتحول ابتسامتها الدائمة إلى سعال عنيف وتحاول أن تقاوم ألما كان هو الأشد في حياتها حتى سقطت أرضا من الإعياء وفزع هو وظل يهتف:

- أمي، أمي

حاولت عبثا أن تمسح برأسه لتطمئنه وكأنها لا تعبأ بنفسها أكثر مما تعبأ به وبنظراته الخائفة، رفعت يدها ولكنها لم تقو على أن تصل إلى رأسه وظل هو يهزها بكلتا يديه ويردد خائفا:

- أمي

وتجمع الناس حول صراخه وهو يجذبها بيديه الصغيرتين وهي لا تجيب وتوقفت سيارة بين الجموع ليرفعوها ويدخلوها إلى المقعد الخلفي وهو يحاول اختراق جموع الناس ويدافع أرجلهم ويهتف بكل ما يملك من قوة:

- أمي، أمي

قال صاحب السيارة:

- هل هي أمك؟

نظر بعينيه الدامعتين وأجاب بكلمة واحدة:

- أمي

- حسنا، اركب معي

كان الطريق إلى المستشفى يبدو وكأنه عدة أميال، قطعه واقفا على المقعد الأمامي في السيارة لا يحول عينيه عن أمه التي ترقد على المقعد الخلفي تتنفس بوهن ولا تستطيع الحراك، ثم بعد ذلك صورة أخرى وهم يجرونها على حاملة بيضاء وهو يسرع الخطى خلفها في ممرات المستشفى الطويلة المتشابكة حيث يبدو كل شيء أبيض ومتشابها ومتكررا، ويظل بصره معلقا بها حتى تدخل حجرة كبيرة ويغلقون الباب في وجهه فيقف وحيدا ينظر إلى وجوه البشر الذين يمرون أمامه ولا يكاد يتعرف أي وجه منهم، كل ما يحفظه عن ظهر قلب هو وجه أمه، وجه واحد يجتمع فيه كل البشر

خرجت الممرضة من الحجرة فهتف هو:

- أمي

خاطبته برفق:

- هل هذه المرأة هي أمك

هز رأسه بنعم، قالت:

- أخبرني أين والدك

هز رأسه نفيا سألته بحزن:

- هل والدك حي؟

نفى مرة أخرى سألته في حيرة:

- مع من أتيت إذا؟ عمك عمتك خالك جدك

هز رأسه بالنفي مرة أخرى، فتحدثت مع زميلتها وقالت:

obeikan.com

- اذهبي إلى الطبيب، أخبريه أن معي حالة ربما تستدعى الاتصال بدار الأيتام

ثم التفتت إليه وقالت:

- تعال معي

وأخذته من يده وعيناه لا تزالان معلقتين بالغرفة التي دخلتها أمه ولما تخرج منها، فقادته عبر الممر الطويل وخطواته تتشبث بالأرض، يبطئ الخطى ويمشي موليا ظهره إلى الممر حتى يرى الباب الأبيض الكبير خلفه، الباب الذي ظل يبتعد أكثر وأكثر وهو يهتف في نفسه:

- أمي

ويمد يده من بعيد نحو الباب وكأنه يحاول أن يتعلق بها ولكنه لا يستطيع، ولا يملك سوى أن يودعها بقطرات من دموعه التي تتساقط على الأرض قطرة بعد قطرة حاملة آخر نداء لديه وكل ما تبقى من سعادة وسكينة

أيامه الأولى في الدار لم تكن تختلف عن أيامه الآن، فهو دائم الشرود يجلس ساعات وحيدا لا يتكلم ولا يلعب، ظنه زملائه أخرس لأنه لا يتحدث إليهم ولا يلعب معهم، بل يجلس وحده حتى يأتي المساء وتنطفئ الأنوار فينام الجميع ويبقى هو ساهرا يعجز أن يغفو، هناك صدر واحد فحسب هو الذي يستطيع أن يضمه حتى ينام، ذلك الصدر الحنون الذي فقده إلى الأبد

- هناك من جاء لزيارتكم يا أولاد

خرجوا جميعا ليقابلوا الزائر الذي كان رجلا ثريا مع زوجته الذين أخذا يوزعان عليهم لعبا كثيرة ويتحدثان معهم بمودة ويقصان عليهم قصصا مضحكة ولكنه ما زال لا يتكلم ولا يبتسم فاقتربت منه المرأة ومسحت على رأسه مرات في ود وسألته:

- ما اسمك؟

لم يجب، ألقت عليه عدة أسئلة ولكنه لم يجب، فقالت له:

- لم لا تفض علبتك فتنظر ماذا فيها؟

فض العلبة فوجد فيها دمية ثمينة من الخشب، فتمثلت في خياله صورة لحصان خشبي مكسور، وركن متهدم من بيت قديم وهو يلعب بحصانه وينظر خلفه فيجد أمه تنظر إليه وهي تبتسم، أمسك اللعبة الجديدة التي كانت أفضل بكثير من حصانه الخشبي القديم الذي وجده بين المهملات ولكنه لا يزال يحن إلى حصانه القديم وإلى ذلك الركن المتهدم وذلك الحضن الدافئ الذي عصفت به الدنيا بعد أن فقده

نظرت إليه المرأة بإشفاق وهى ترى في عينيه صمتا غريبا لا تفهم سره، جذبته برفق من يده وضمته إلى صدرها عله يطمئن إليها، وأخيرا يشعر مرة أخرى بصدر حنون يضمه، هذا ما كان يبحث عنه في الحياة، حضن كحضن أمه، ويد تمتد بالود والحنان قبل أن تمتد بهدية، ظهره الذى فقد من يستند إليه يحن إلى صدر حنون وذراعين رحيمتين ليمنحوه ما افتقده، نظرت إليه وابتسمت بحنان ولكنه لا يدرى لماذا هذه الابتسامة تختلف عن ابتسامة أمه، وهذا الصدر مع حنانه مختلف عن صدرها الذى كان يجد به الحنان والمأوى والملاذ، لا شيء يمكن أن يعوضه عن أمه بل بدا وكأنه هو الذى يرفض أن يسمح لأحد بأن يأخذ مكانها، يرفض أن يستبدلها بأخرى أو أن يترك أحدا يحل محلها، بل يصر عليها وعليها وحدها، يصر على أن لا يتركها حتى في ذكرياته، فحياته معها في الخيال خير عنده من حياة مع امرأة سواها في الحقيقة، ولا يزال يراها جميلة متفردة، لا ابتسامة أعذب من ابتسامتها حتى وإن كانت باهتة، ولا صدر غير صدرها المنهك بالسعال يستطيع أن يعطيه السكينة حتى ينام

جلست المرأة مع مدير الدار وقالت:

- أريد أن أتبنى طفلا من هنا

- بكل سرور، نحن نقدر هذا ونشكره لك، هل تريدين أن أتخير لك طفلا مطيعا

أجابت في حسم:

- لقد اخترت طفلا بالفعل

فتح درج مكتبه وهو يقول:

- حسنا، فلنبدأ الإجراءات إذا

سطح الدار هو المكان المفضل عنده حيث يجلس دائما يراقب العالم حوله من بعيد وينظر إلى الناس والبنايات وينظر طويلا إلى خزان المياه العالي الذي يبدو من بعيد، هو يعرف هذا الخزان يقينا فهو قريب من البيت القديم ذي الركن المتهدم الذي كان دائما ملاذه هو وأمه قبل أن يأتي إلى هنا، من بعيد يتأمله في صمت ولا يمل أبدا

- غدا العيد يا أولاد، سيأتي إليكم الكثير من الزوار، استعدوا لمقابلتهم وناموا مبكرين، سوف تحصلون على هدايا وملابس جديدة

استمع مثل زملائه إلى هذا التنبيه ولكن كلمة «العيد» تركت في نفسه ما لم تتركه عند زملائه، حين قيلت فأزمعت أن ترجعه إلى الوراء وتقفز به سريعا بين ذكريات ينشنه وأطياف من الماضي يفدن عليه، لقد سمع هذه الكلمة آخر مرة من أمه:

- غدا العيد، سنحصل على الكثير من المال وسوف نأكل اللحم

نظر إليها وبادلها ابتسامتها الحانية وهي تخرج له قميصا ليس بجديد ولكنه أفضل حالا من قميصه الرث وتقول:

- انظر إلى ما حصلت عليه اليوم، إنه قميص جديد

التقته في سعادة وأسرع ليرتديه فكان واسعا بعض الشيء ولكنه ابتسم في سعادة وكأن كل شيء من يدها يبدو له جميلا، فابتسمت وهي ترى السعادة في عينيه وأكملت:

- وغدا بإذن الله سنأكل الكثير من اللحم

ابتسم في سعادة وألقى نفسه على صدرها فضمته إليها واستندت بظهرها إلى الركن المتهدم وربتت على ظهره وهي تهدهده بحنو حتى استكان ونام حاول أن ينام مبكرا كما تقول الأوامر ولكنه لم يستطع، أسند ظهره إلى

الجدار لعله ينام ولكن أنّى ينام وقد رحلت بهدأته وبحضنها الحنون الذي يهبه السكينة، ومر الليل وأقبل النهار ولم يغمض له جفن، ظل جالسا حتى استيقظ الجميع وماجت الدار بالنشاط وخرج الأطفال في فرح، وبينما كان كل الأطفال يقابلون الزوار في فناء الدار ويلعبون ويغنون كان هو على السطح يشاهد الشوارع والناس، ويتأمل الأطفال وهم يمرحون مع آبائهم وأمهاتهم وينظر طويلا إلى خزان المياه البعيد، وبينما هو ذاهل في شروده جاءته المشرفة وقالت:

- تعال معي، هناك مفاجأة من أجلك

ذهب معها إلى مدير الدار الذي أشار إلى المرأة التي زارتهم من قبل وابتسم وقال:

- إقامتك هنا انتهت، سوف تنتقل إلى بيت جميل وحياة أفضل، كن هادئا ومطيعا كما كنت دائما

وانطلق معها حتى وصلا إلى بيت قريب ذي حديقة واسعة، وصعد معها حتى وصلا إلى حجرة صغيرة فقالت:

- هذه هي حجرتك، بها الكثير من اللعب وبها ملابس جديدة ونظيفة، وسوف أطهو لك الآن طعاما جيدا

ونظرت إلى وجهه المفعم بالإرهاق وقالت:

- تبدو مرهقا بشدة، يمكنك أن تنام قليلا حتى انتهى من إعداد الطعام، لن أتأخر، اتفقنا

هز رأسه موافقا فقالت:

- يمكنك أن تقول نعم يا أمي، يمكنك أن تناديني بأمي

اقتحم عقله فجأة مئات الصور تتدافع وتتلاحق كالبرق جعلت وجهه يمتقع وهو يهتف:

- أمي

قالت في حنان:

- نعم أمك

قبلته وتركته لتعد الطعام وظل يتأمل الحجرة، فراش وثير وخزانة للملابس وصندوق كبير به كثير من اللعب والدمى، اقترب منه وأخذ يقلب فيه دون اهتمام حتى رأى لعبة على هيئة حصان، وهنالك ارتجت ذاكرته مرة أخرى بعنف، شريط طويل من الذكريات يمرق في ذهنه حتى استقر أخيرا على مشهد لحاملة بيضاء عليها امرأة هامدة تدخل إلى حجرة كبيرة ولا تخرج منها مرة أخرى

وقف يسترجع كل ما رآه اليوم، البيت والحديقة والدمى وحتى المرأة الحنون التي سمحت له بأن يناديها بأمي، ولكن لم يبد كل هذا كافيا، لا شيء يقوى على أن ينسيه وجه أمه، الفقر والجوع والحر والبرد أشياء لا تعنى شيئا في وجودها، كما أن الفراش والثياب واللعب لا يعنون شيئا في غيابها، من يعوضه غيابها؟ بل من يستطيع أن يكون له كما كانت هي، كل ما يحيط به من رعاية لا يغنى عن ابتسامة واحدة من شفتيها الباهتتين

تسلل إلى خارج الحجرة وأخذ يراقب بحذر ثم فتح الباب برفق وتسلل إلى الحديقة ومشى برفق إلى جوار السور دون أن يراه أحد، صعد على شجرة في جوار السور ثم أمسك بالسور وصعد فوقه ولم يتردد لحظة في أن يقفز ليهرب، كانت السقطة مؤلمة حتى أن ركبته وذراعه قد جرحتا، وقف يقاوم الألم لثوان وتحامل على نفسه ومضى حتى منتصف الطريق وأخذ يدور ببصره في كل اتجاه بين الناس والطرق والبنايات حتى ثبت نظره أخيرا على خزان المياه الكبير الذى يبدو من بعيد، فأخذ يعدو بكل ما يملك من قوة يمسك بجرح ذراعه ويعرج على ركبته المجروحة ويخترق صفوف الناس في وهن ولكن لا أحد يبالى به ولا يهتم لأمره، كلٌ يشغله أهله وأولاده عن أي شيء آخر، ولا يثير انتباهه طفل غريب يجرى وحده يوم العيد بثوب خلق وذراع جريحة، وهو يركض وكأن أحدا يلاحقه ويتوقف كل حين يلهث وينظر خلفه ثم ينظر إلى الخزان العالي ويكمل في إصرار، وفى طريقه

يصطدم بأرجل الناس يدافعهم ويدافعونه وهو يعدو ولا يعبأ بالسيارات التي تنطلق إلى جانبه وتكاد تصدمه ولا بالدم الذى يسيل على ذراعه حتى اقترب من الخزان الكبير فأبطأ الخطى واقترب أكثر حتى أبصر البيت القديم ووقف أما الركن المتهدم وهتف من أعماقه :

- أمي

هنا كان العالم كله لديه، بين ذراعي أمه وفى ابتسامتها، في قطعة خشب تظله من الشمس وتقيه المطر، هنا كان الحضن الذي فقده وعجز أن يعوضه عنه أحد

اقترب ببطء وهو ينظر في كل مكان ويتذكر كلمات تداعت إلى ذاكرته وهي تضع أمامه الطعام وتقول:

- ها هو اللحم كما وعدتك

ثم ابتسمت وهي تخرج دمية قديمة وتعطيها له وتقول:

- ولعبة جديدة أيضا

اقترب من الركن المتهدم وأخذ يتحسس الحائط بيديه وينظر في كل مكان، ثم جلس وأسند ظهره إلى الجدار الذي كثيرا ما آواه هو وأمه، وأرجع رأسه إلى الوراء حتى شعر بالسكينة تسري فيه شيئا فشيئا، ولأول مرة منذ شهور كثيرة يستطيع أن يغلق عينيه، وينام

obeikan.com

مجمع أديان

منذ أن كنت صغيرة وأنا أكرههم، ليس لأنى ذات قلب حقود، ولكنى أبادلهم فحسب بعضا مما يحملونه لنا في صدورهم من كره وضغائن، لا أذكر أنى لعبت مع أحد منهم في طفولتي، أو أنى اتخذت صديقا منهم في المدرسة، حتى الجيران منهم لا أذكر أنى حييتهم بتحية، ولكن ليس عدوانا منى بل إن العدوان منهم، هم الذين يكرهوننا ويريدون قتلنا، يتسلحون في الخفاء ويتحينون الفرصة لكى يبيدونا من الأرض، هذه هي حقيقتهم التي ترددت كثيرا على مسامعي منذ أن كنت صغيرة أستمع إلى عائلتي وهم يقصون روايات تؤكد قسوتهم وحجم العداء الذى يكنونه لنا ويحذروننى منهم ومن خطرهم ؟ وهل هناك عدو أكبر منهم وهم يخالفون كل ما أؤمن به ؟! يخالفون كل ما لدى من قيم وأعراف وتقاليد، ولا يؤمنون بما أؤمن به، بل يؤمنون بأشياء أخرى مروعة وسوداء، تجعلنا في أعينهم كفارا، دماءنا حلالا وأعراضنا مستباحة وأموالنا مغانم، نحن نعلم ما يسرون، لقد أفهمني أهلي كل شيء منذ صغرى وأخبروني بكل ما يبيتون لنا وبمحاولاتهم المستميتة للسيطرة على الاقتصاد لإفقارنا وانتزاع الثروات منا، فهم يقاطعون صنّاعنا ويتخذون من أنفسهم فقط عمالا وصناعا حتى لو كانوا أقل خبرة وأكبر أجرا، وبعد أن تقوى شوكتهم سيستعينون بحلفائهم في الخارج لينقلبوا علينا لينشروا دينهم ثم يستولوا على أرضنا فتتسع رقعتهم ثم يحكمونا ويقتلونا زمرا ولا عجب في هذا، فدينهم هو دين القتل وسفك الدماء،

سيبيدوننا إبادة تامة بدم بارد وهم فخورون مؤمنون أن ربهم سيرضى عنهم ويكافؤهم بالجنة على ما فعلوه، كل هذا لأننا نؤمن بدين آخر وهم لن يترددوا أن يدفنونا أحياء ولا يتركوا لنا الحرية كي نؤمن بما نريد أو نعتقد ما نشاء، فإما أن نتبعهم وإما أن ننحر نحر الذبائح

اليوم هم يحاولون أن يظهروا لنا اللين والسماحة لأنهم ضعفاء ولكننا نعلم أنهم يتحينون الفرصة فإن جاءتهم فالويل لنا مما سيفعلون بنا، ولذا فأنا مصرة على التمسك بديني على الرغم من محاولاتهم وجهودهم المضاعفة لزعزعة إيماننا والتشكيك في ديننا، ولكنهم لا يعلمون أنى لن أترك ديني حتى وإن قتلوني، لن يستطيع أحد أن ينتزع إيماني من قلبي أو أن يمنع صلاتي ودعائي، أصلى كل يوم لربى حتى يحفظني من شرهم ومن تدابيرهم الشيطانية، أفعل كل ما في وسعى حتى أثبت على إيماني ولا أحيد عنه، لذا فأنا لا أكتفى بالصلاة بل أستمع إلى العظات والدروس والمحاضرات الدينية مثل محاضرة اليوم ولكن ما يضايقني حقا أنها داخل مبنى في مجمع الأديان، ذاك المجمع الكبير الذى أسسوه حديثا على مساحة واسعة وجعلوا به دورا للعبادة وقاعات للمحاضرات ومسارح وملاعب، فكرة حمقاء لست أدرى من الذى ابتكرها ونفذها على أمل أن يقرب هذا بيننا وبينهم، وهل لعبنا معهم ومشاهدة المسرحيات معا والغناء معا يمكن أن يغير من رغبتهم في قتلنا أو ازدراء عقائدنا، هل سيتغير كل ما تعلمناه منذ ولادتنا حين نبنى دور عبادة متجاورة ! مضطرة مع الأسف أن أرى كثيرا منهم هناك، ولولا أن أصدقائي حدثوني عن المحاضر الجديد الذي سيلقى محاضرة اليوم وكيف أنه شخص رائع وحديثه شائق، لولا هذا لما ذهبت أبدا

وصلت هناك وبدا كل شيء هادئا ولكن ما يجيش في الصدور لن يهدأ أبدا، سألت عن قاعة المحاضرات فأخبروني أنها في الدور الأعلى، صعدت فورا دون أن أستعلم عن تفاصيل أخرى حتى لا ألتقي بمزيد منهم، ولكن يبدو أنى تأخرت قليلا فالممرات كانت خالية وباب القاعة مغلقا، فاتجهت

إلى القاعة وحين اقتربت من الباب توقفت في حيرة، فقد كانت هناك قاعة أخرى مواجهة لها، هما قاعتان إذا فأيهما بغيتي وأنا لا أعلم اسم القاعة!
أوقفت شابا كان يمر إلى جواري وسألته عن المحاضرة التي جئت من أجلها فأبلغني أنها في إحدى القاعتين ولكنه لا يدري أيهما، سألته عن القاعة الأخرى فأجابني أن فيها محاضرة أخرى عن دين آخر، يا لها من ورطة! أي القاعتين أقصد وأنا لا أعرف هيئة المحاضر!
ترددت قليلا وفكرت أن أدخل لأكتشف بنفسي ولكن ماذا لو كانت القاعة الأخرى؟ سيكون حرجا أن أدخل فجأة وأخرج على الفور، فكرت أن أنزل مرة أخرى فأسأل ولكن أأنتظر المصعد أم أنزل على قدمي!، في النهاية حسمت أمري وقررت أن أتنصت قليلا على الباب وحتما سأعرف من الحوار الذي سأسمعه أي محاضرة هي التي تتحدث عن ديني وأيهما التي تخص الدين الآخر، فاقتربت من الباب وأرهفت السمع فوجدت المحاضر يقول:

- ومن مواضيع محاضرة اليوم الحب، الحب والرحمة وكثير من القيم التي سنقف عندها طويلا

كان الأمر أسهل ما يكون، فهذا هو ديني الذي يحض على الحب والرحمة وليس دينهم الذي يبيح القتل كما يبيح الطعام والشراب، حتما هذه هي القاعة المنشودة، وضعت يدي على مقبض الباب وقبل أن أديره لأفتح الباب وأدخل راودني بعض من حب الاستطلاع، ترى ماذا يدبرون في القاعة الأخرى؟ قطعا يبثون هناك سموما وتحريضا على قتلنا وإبادتنا، تلفت بحذر وحين أيقنت أنه لا أحد يراني اقتربت بحذر وتنصت على القاعة الأخرى لأسمع هذه الترهات التي يبثونها في العقول فسمعت المحاضر يقول:

- وسنتحدث أيضا عن المغفرة والعفو والتسامح، إنهم من أعظم القيم التي سنتحدث عنها في محاضرة اليوم

ما هذا؟ ما هذا الكلام ؟! مغفرة وعفو وتسامح! هذه قيم يختص بها ديني! كنت سأحرج نفسي إن تسرعت ودخلت القاعة الأولى ولكن! ماذا كان إذا

في القاعة الأولى، توجهت مرة أخرى للقاعة الأولى في حيرة وتنصت فسمعت المحاضر يقول:

- بالحب والرحمة يمكننا أن نحيا في سلام مع النفس وسلام مع الآخرين مهما اختلفنا معهم، فلا شيء في الدنيا يستحق أن نقتتل من أجله تبا! ما هذا العبث إن هذا الكلام من صميم ما أؤمن به! من إذا في القاعة الأخرى؟، ذهبت مرة أخرى وتنصت فسمعت المحاضر يقول:

- وبلا تسامح ستحترق قلوبنا حقدا وكرها وتفقد سلامها وسكينتها توقفت حائرة ولا أدرى ما هذا، هناك لبس ما حدث، هل المحاضرتان عن دين واحد!

كان هناك فتاة آتية من بعيد انتظرت حتى اقتربت منى ثم سألتها عن المحاضرات فأكدت لي أن هناك في هاتين القاعتين محاضرتين لدينين مختلفين كل في قاعة ولكنها ليست على يقين أيهما هي قاعتي المنشودة!

حسنا وماذا بعد! ما الذي يجرى هنا! أين الأحاديث عن القتل والاضطهاد والإبادة! متى سيبدأ الحديث عن العنف والإرجاف وسفك الدماء؟ يقينا هناك خطأ ما، لا يمكن أن تكون هاتان المحاضرتان عن دينين مختلفين! أين إذا ما تعلمته من أهلي طوال سنوات عمري الماضية! لا يمكن أن يكون هراء، قررت أن أتنصت أكثر حتى أستيقن وأعرف أين هي قاعتي، ذهبت مرة أخرى وتنصت على القاعة الأولى فسمعت المحاضر يقول:

- حين تقرأ هذا النص تجده يقول أَنَا الرَّبُّ وَلَيْسَ آخَرُ. لاَ إِلهَ سِوَايَ ذهبت إلى القاعة الأخرى فسمعت المحاضر يقول:

- ولأنه الواحد فهو يقول لرسوله إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي علمت الآن أيهما قاعتي ولكن دفعني الفضول لأعرف المزيد فأخذت أتنصت وأتنقل بين القاعتين مرارا لأسمع هذه الأحاديث:

- مُصَوِّرُ النُّورِ وَخَالِقُ الظُّلْمَةِ

- وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ

- لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي
- وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ
- أُسَائِلُ نَفْسِي: مَنْ هُوَ الإِنْسَانُ حَتَّى تَهْتَمَّ بِهِ؟ أَوِ ابْنُ الإِنْسَانِ حَتَّى تَعْتَبِرَهُ؟، جَعَلْتَهُ أَدْنَى قَلِيلاً مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِلَى حِينٍ، ثُمَّ كَلَّلْتَهُ بِالْمَجْدِ وَالْكَرَامَةِ
-وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا
- سَافِكُ دَمِ الإِنْسَانِ بِالإِنْسَانِ يُسْفَكُ دَمُهُ
- وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ
- لاَ تَقْتُلْ
- وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ
- لاَ تَزْنِ
- وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا
- أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ
- وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
- لاَ تَشْهَدْ عَلَى قَرِيبِكَ شَهَادَةَ زُورٍ
- وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ
-اِفْتَحْ فَمَكَ. اقْضِ بِالْعَدْلِ وَحَامِ عَنِ الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ.
-إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى
- وَإِنْ حَصَلَتْ أَذِيَّةٌ تُعْطِي نَفْسًا بِنَفْسٍ، وَعَيْنًا بِعَيْنٍ، وَسِنًّا بِسِنٍّ، وَيَدًا بِيَدٍ، وَرِجْلاً بِرِجْلٍ، وَكَيًّا بِكَيٍّ، وَجُرْحًا بِجُرْحٍ
- وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ
- وَأَيُّ بَيْتٍ دَخَلْتُمُوهُ فَقُولُوا أَوَّلاً: سَلاَمٌ لِهذَا الْبَيْتِ
- فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً
- وَأَيَّةُ مَدِينَةٍ دَخَلْتُمُوهَا وَلَمْ يَقْبَلُوكُمْ، فَاخْرُجُوا إِلَى شَوَارِعِهَا وَقُولُوا: حَتَّى

الْغُبَارَ الَّذِي لَصِقَ بِنَا مِنْ مَدِينَتِكُمْ نَنْفُضُهُ لَكُمْ
- وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ
- لاَ تَدِينُوا لِكَيْ لاَ تُدَانُوا
- لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ
- لَيْسَ يَهُودِيٌّ وَلاَ يُونَانِيٌّ. لَيْسَ عَبْدٌ وَلاَ حُرٌّ. لَيْسَ ذَكَرٌ وَأُنْثَى
- وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ
- أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ
- وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ
- أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ
- فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

توقفت لألتقط أنفاسي وأحاول أن أعي ما أسمع! ما هذا الذي أسمعه، أنى تكون هذه الأحاديث من مصدرين مختلفين وما بينها من تشابه أو تطابق! هناك خطأ ما أو أن هناك شيء لا أفهمه، أين ما تربيت عليه وسمعته عمرا من أهلي وأصحابي؟ أين هذا مما يتداولونه في الإعلام؟، من أين أتت تلك الأحاديث التي لم أسمع عنها إلا اليوم؟ شعرت أن عقلي أشبه بحاسوب اختلت به قواعد البيانات، وهناك مئات الأسئلة الحائرة التي لا جواب لها لدى، لولا أذناي ما صدقت أنى عشت هذا العمر دون أن أعرف أو أفهم أو أعقل! ألهذه الدرجة يكذب كثير ممن حولي؟ ولم؟ هل كان عقلي وعاء يملؤه الآخرون وأنا أظن أن لدى من الذكاء والحصافة والحكمة ما يكفي؟ وأحكامي التي تبينت أنى بنيتها على أساس واه لأني لم أعط نفسي ولو فرصة واحدة لأدرس بنفسي وأستمع وأقرأ وأفكر! ولولا هذه المصادفة لأكملت حياتي كالإمَّرَة أؤمن بأكاذيب أورثتها لأورثها أولادي من بعدى، يا ويلتى كم أخجل من نفسي، وكأنه ليس في هذا العالم من هو أحمق منى؟

وفجأة تسمرت في مكاني واقشعر جلدي حين سمعت أصواتا تعلو من كلتا القاعتين، أصوات أدعية وصلوات ترتفع إلى الله، كل الأصوات تعلو وتنادى

بالرحمة والمغفرة، ترانيم وابتهالات وأدعية ترتفع في ضراعة إلى الله، هل ما أسمعه حق؟، هل كل هؤلاء الذين أتوا إلى هنا لا يريدون شيئا سوى الإيمان بالله وتلاوة الصلوات؟، إنهم ينادون الله! جميعهم يقولون الله، يؤمنون به ويدعونه ويسألونه وينادونه بنفس الاسم!

لا أكاد أصدق كل هذا وكأني في حلم، صلوات ترفع إلى الله من قاعتين متجاورتين لا يفصل بينهما سوى أمتار قليلة! ماذا يريد البشر إذا؟ ولم تشتعل كل هذه الحروب وتراق كل هذه الدماء؟ هل ليمنع بعضنا بعضا من الصلاة؟ لم؟ بأي مشيئة ولأي هدف؟ ما الذي سنجنيه من وراء هذا؟ إن الذي أشهده الآن هو ما كنت أرجوه طوال حياتي، أن يحترم الآخرون مقدساتي ويتركوني لأؤمن بما أشاء وأصلى لمن أشاء كالذي أسمعه الآن، كل منهم يصلى لله ولا اختلاف بينهم سوى في قلب كل منهم، أما عن عباراتهم فقد تتشابه وأحيانا تتحد، ألا نستطيع إذا أن نحيا متجاورين ونأكل متجاورين ونصلى متجاورين؟ ما الذي يفيد الآخرين إن قطعت صلاتي أو حولتها من معبود إلى آخر؟ هناك دائما مكان لنصلى فيه، صلاتنا لن تضر أحدا ولن تزعج أحدا، ولا يستطيع بشر أن يمنعنا منها، حتى وإن كبلنا وكمم أفواهنا فسنقيمها من داخلنا، من قلوبنا، وفى أنفسنا، ولكن لم نسعى لنمنع الصلاة؟ أليس من الأولى أن نمنع الحرب والرصاص وسفك الدماء؟ أليس من الأفضل لو سعينا لنمنع عن البشر الجوع والخوف والمرض؟ أليس من حقي أن أصلى؟

صلواتنا لإله نؤمن به حتى وإن كانت باطلة، حتى وإن كنا مخطئين في كل ما نؤمن به فهي قطعا أفضل من الحرب والقتل وسفك الدماء

خفضت وجهي وشكرت الله أنه أنار بصري ودعوته بكل ما أريد، ناديته يا الله امنحني السلام مع نفسي ومع كل الناس، أخرج هذه الكراهية المقيتة من قلبي حتى لا يحترق، ولا تجعل فيه غير الحب والرحمة والسلام

وفجأة برز رجلان يتحركان بريبة في آخر الممر ويبدو عليهما الارتباك ثم

انصرفا في عجلة، ووقفت حيرى وأنا مرتابة في أمرهما وحين أخذت خطوات نحو نهاية الممر دوى انفجار عنيف ووجدت نفسى اندفع في الهواء حتى ارتطم جسدي بالحائط وسقطت أرضا وكل عضو في جسدي يئن من الألم، حاولت أن أتماسك وأقف ولكن شعرت أن الأرض تدور بي وآخر ما أذكره هو الجدران التي تهدمت من الانفجار وصيحات الفزع وأنات الألم والدماء التي تناثرت ولطخت كل شيء حتى وجهى، دماء الأبرياء الذين لم أتعرف على أشلائهم، تشابهت دمائهم، واختلط في أذني صوت الصلوات الأخيرة بهزيم الانفجار وامتزج صوت الدعاء بصوت أنات الألم، واختلطت الدماء من كل مكان حتى كونت بركة من الدم، وأمام عيني سالت الدماء وامتزجت في بؤرة واحدة لم يمنع اختلاف الجنس والعرق والدين من امتزاجها، فبدت لي كلها واحدة لم تصطبغ بلون ولا عقيدة، ودارت الأشياء حولي دورة أخيرة وعنيفة وسقطت في ظلام سحيق

أفقت بعد عدة ساعات علمت فيما بعد أنها كانت أياما، لأجد أمي وأبى إلى جواري وهما يبتسمان حين فتحت عيني، والدموع تسيل برفق على وجناتهما، وغمرانى بالحب والحنان وبكلمات امتزج فيها الفرح بالبكاء، حتى شعرت بعظم المصيبة حين نفقد أحدا نحبه دون ذنب ودون داع، ودخل الطبيب الذي بدا ودودا إلى درجة كبيرة وقال:

- كيف حال جميلتنا الآن

أجبت بصعوبة وأنا أقوام الدوار:

- ما زلت حية

مد يده بالمحقن وحقنني بشيء لا أعرفه وهو يقول:

- هذا من حسن حظ رجل ما

ونزع محقنه وابتسم ابتسامة حنونة وأردف:

- ستصبحين بخير خلال ساعات

وانصرف من فوره وحاولت أن أبقى يقظة ولكن غلبني النوم وحين أفقت

كانت ساعات أخرى قد مضت وجاءت الممرضة تحمل الطعام، كنت أشعر ببعض الدوار والألم فسألتها عن الطبيب فأخبرتني أنه قد انصرف لأنه لثلاثة أيام لم ينم جيدا ولم يذهب إلى بيته فحالتي كانت خطرة وتعهد هو أن يبقى ساهرا يتابعني حتى أتحسن، وانصرفت الممرضة وبدأت أمي الحديث:

- حمدا لله، لقد أصبحت بخير، نجوت يا بنيتي من كيدهم، ولكن هناك الكثيرون غيرك من الأبرياء قتلوا بغير ذنب، كم أتمنى لو قتلتهم جميعا بيدي انتقاما منهم

أجبت بصعوبة:

- من هم؟ من تقصدين يا أماه

- من غيرهم؟ هؤلاء الذين يقتلوننا وكأننا غنم

قلت في وهن:

- كلا يا أماه، أنت مخطئة، أنا كنت هناك، ورأيت بعيني القتلى منا ومنهم

- أنت ما زلت صغيرة ولا تعرفينهم مثلى، هم وحدهم من فعل ذلك، ولن يتوقفوا حتى يبيدونا جميعا

- كلا يا أماه، لم يكونوا يفعلون شيئا سوى الصلاة

- أنت لا تعرفين من هم

- أخبريني أنت يا أماه من هم؟ ألا تذكرين حين تحدثت الممرضة عن الطبيب؟ هل سمعت اسمه؟ ألا يؤكد اسمه أنه منهم؟ ألم يسهر كما رأيت ثلاثة أيام بلا نوم حتى ينقذ حياتي؟ لماذا لم يضع لي السم في المحقن بدلا من الدواء

صمتت أمي وكأنها لا تجد ما تقول، وبدأت أشعر بمزيد من الألم بعد هذا الجدل والتأثر فقال أبي:

- استريحي الآن يا بنيتي، لست في حال يسمح لك بالجدل أو حتى بالحديث

obeikan.com

حاولت أن أستريح ودق الباب، كان المحقق يستأذن ليحصل على بعض المعلومات منى فدخل وقال:

- أعلم أنك لست في حال يسمح بإجابات وافية عن أسئلة كثيرة ولكنى سآخذ منك الآن بعض الإجابات القصيرة، هل تسمحين؟

هززت رأسي علامة الموافقة فقال:

- هل شاهدت الحادث؟
- نعم
- هل رأيت شيئا يبدو مريبا قبل حدوث الانفجار
- نعم
- ما هو؟
- اثنان، رجلان
- كيف كانا يبدوان؟ أعنى هل يمكن أن تحزري أي شيء عنها؟ مثلا بلدهما أو دينهما
- لست خبيرة بعلم الأجناس ولكن كانا يبدوان من هنا
- ماذا تعنين بهنا؟
- أعنى من نفس البلد
- وماذا عن الدين

حاولت أن التقط أنفاسي قبل أن أعتدل وأجيب:

- حسنا، لم أقترب منهما بما يكفي لألحظ هذا ولم يكن في ثيابهما أو على وجهيهما ما يبين ما دينهما، ولكن من يقتل نفسا بريئة بغير ذنب ومن يريق كل هذه الدماء ومن يحيل البشر إلى أشلاء صغيرة في ثوان دون أن يتورع فمثل هؤلاء لا إله لهم إلا هواهم، ولا إمام لهم إلا شيطانهم، لا وزاع لهم من دين ولا ضمير، ولا شيء في قلوبهم إلا حبهم لأنفسهم، مثل هؤلاء أؤكد لك أنهم لا عقيدة لهم، ومن المحال أن يكونوا يؤمنون بأي شيء أو يدينون بأي دين

obeikan.com

لا أعرف

بذات اللهفة التي قرأت بها الإعلان في الجريدة أمسكت الهاتف وأجريت اتصالا بالشركة المعلنة وحصلت على تفاصيل الوظيفة، أخيرا وجدت فرصة عظيمة في شركة قريبة من مسكني فلن أعبأ بالزحام والمواصلات في الذهاب والإياب، أما الراتب فهو شيء لا يصدق فاق كل ما حلمت به، وزيادة على كل هذا فالوظيفة في المجال الذى درسته وتخصصت له وأخذت كثيرا من دورات التدريب عنه وعملت فيه لسنوات قبل أن أترك وظيفتي الأخيرة التي لم يعد راتبها يكفى مصروفاتي اليومية، بقى أن أحصل على هذه الوظيفة التي لن تعوض، قمت بتعديل سيرتى الذاتية حتى تبدو أدق وأضفت كثيرا من الخبرات والمهارات التي اكتسبتها أخيرا ثم أرسلتها إلى بريد الشركة الإلكتروني وطبعتها أيضا على عدة صفحات لعلّى أحتاج إليها، من يدرى؟ هذه الفرصة لن تأتى مرة أخرى

ثم تلقيت مكالمة من الشركة تحدد موعد المقابلة، وقبل ساعة كاملة من الميعاد قمت وارتديت أفخر ما لدى من ثياب وكأني ذاهب إلى ليلة عرسي، وتأكدت للمرة الرابعة من القرص المضغوط الذي عليه نماذج من أعمالي السابقة، لا أريد أن يفوتني شيء، فهذه فرصة لن تتكرر

ومع حرصي الشديد فوسائل المواصلات لا ترحم والطرق المزدحمة لا تتحرك أبد ووصلت إلى الشركة في الميعاد تماما أو للدقة كنت متأخرا قليلا، لا أريد

أن أبدو في صورة المهمل الذي لا يبالي بالمواعيد في أول لقاء ولكن لا بأس فهناك عدد كبير من الشباب الذين أتوا سعيا خلف هذه الفرصة مثلى، ولكن أظن أن شهاداتي الدراسية ودورات التدريب التي تلقيتها بالإضافة إلى مهاراتي وخبراتي وسابقات أعمالي سوف يحسمن هذا الصراع لي حتى أحصل على هذه الوظيفة

ومن المكتب المجاور للباب استلمت من الفتاة المسئولة عن تنظيم المقابلات ورقة لطلب التوظيف، أخذتها وجلست لأملأها ولم أستغرق سوى دقيقتين، فمع رحلتي الطويلة في البحث عن عمل وانتقالي بين الشركات والوظائف أصبحت مهاراتي في ملء هذا الطلب أكبر من مهاراتي في العمل نفسه

أنهيت كتابة كل البيانات وقمت لأسلم الورقة إلى نفس الفتاة وحين عدت لأجلس مكاني وجدت المفاجأة، هذا الشاب الذي يجلس هناك أعرفه جيدا، إنه يوسف صديق عمري، صديق الطفولة والدراسة والجامعة، هب واقفا وأسرع نحوي وأنا أقول بتعجب:

- يوسف؟
- محمود؟
- ماذا تفعل هنا، ألا أراك إلا مصادفة؟
- اعذرني فأنت تعلم مشاغل الحياة، وجئت بحثا عن وظيفة، وأنت؟
- أنا أيضا جئت للسبب ذاته ولكن لمَ تبحث عن وظيفة، أليس لديك مشروعك الخاص؟

جلسنا متجاورين وأجاب هو بأسف:

- المشروع بدأ يتراجع، الأحوال الاقتصادية حين تسوء فإنها لا تؤثر على المشاريع العملاقة ولكنها تؤثر على المشاريع الصغيرة وعلى الشباب أمثالي، ربما علىّ أن أجد وظيفة براتب ثابت يعينني على المصروفات المتزايدة، فإسحق ابني لحق بالمدرسة هذا العام وكلما كبر الأبناء ازدادت

مصروفاتهم، كما أن زوجتي حامل

- حقا! تهانئي، أريد بنتا هذه المرة، ربما تكون عروسي

ضحك وهو يقول:

- ليتني أعلم لم تأبى الزواج

ضحكت ضحكة ساخرة وقلت:

- أريد أن أحتفظ بعقلي

ضحك هو الآخر وقال:

- أمرك عجيب حقا، كيف تستطيع أن تقاوم هذه الرغبة في بيت مليء بالحب وزوجة تشاركك فرحك وتحمل معك همومك وطفل جميل يناديك بأبي

تلاشت ضحكتي وأنا أجيب:

- لم أتخل عن كل هذا بإرادتي، ولكن أنّى لي نفقات الزواج، وأنا لم أستقر في وظيفة

أحسست بحزنه وتعاطفه وهو يقول:

- ربما تكون هذه هي فرصتك

قلت في حرج:

- كلا، أظن أن هذه فرصتك أنت

وقبل أن يقاطعني أكملت معللا:

- فالشركة بعيدة جدا عن منزلي، أحتاج لسفر ثلاث ساعات حتى آتى إلى هنا

- هل تركت مسكنك الذي في الجوار؟

أجبته مرتبكا:

- نعم، تركته منذ شهور وجئت اليوم فقط لأطلع إلى ما يجرى في سوق العمل

- حسنا ربما على كل منا أن يهتم بهذه المقابلة، فهذه الفرصة لا

obeikan.com

ينبغي أن تضيع، يجب أن يحصل عليها أحدنا

- معك حق، إما لي وإما لك

تبادلنا حديثا طويلا عن العمل والحياة حتى قاطعنا صوت أنثوي يقول:

- أستاذ يوسف، دورك

استأذنني ودخل إلى المقابلة وجلست وحدي أفكر في حال يوسف، إنه أحوج إلى الوظيفة منى، لديه زوجة وطفل وعمله الخاص لم يعد يجدي، لا شك أن مهارته وسيرته الذاتية الزاخرة بالخبرات يؤهلانه حتى يحصل على هذه الوظيفة، كل من رأيتهم هنا من الشباب هم حديثو التخرج وذوو خبرات قليلة وربما بلا خبرات، وبحسابات صغيرة أستطيع أن أجزم أنه ليس هناك عائق أمام يوسف لشغل هذه الوظيفة، من السهل أن يشغلها بما لديه من إمكانات، ولا شيء يمكن أن يحول بينه وبين هذه الوظيفة سوى شيء واحد، أو بالأدق شخص واحد، أنا

نعم أنا العائق الوحيد أمامه، لا أحد هنا يمكن أن ينافسه في هذه الفرصة بشهاداته وخبراته وسابقات أعماله غيرى، لو لم أكن هنا اليوم لحصل «يوسف» على الوظيفة دون شك، هو خيار عسير إذا، فإما أنا وإما هو، وأظن أنى لن أتردد حين أختار، فيوسف ليس صديقا فحسب، بل هو أخي الذى لم تلده أمي، يكفى أن أبحث في أي مكان في حياتي أو بين ذكرياتي حتى أجده، في كل أوقات الشدة والأزمات كان دائما هناك، ربما في بعض هذه الأوقات لا أجد باقي الأصدقاء، لا أبالغ إن قلت إني ربما لا أجد أبى أو أمي أو أحدا من إخوتي، ولكن يوسف كان دائما هناك، حينا بوقته وحينا بجهده وحينا بماله، والأكبر من هذا كله كان معي بقلبه، في هذه الأوقات العصيبة التي لم أجد أحدا يفهمني أو يشعر بي كان هو هناك، حين كنت أتلقى اللوم والاتهامات بالتقصير والفشل ممن حولي كان يفهم أنى فعلت ما في وسعى وأن هذا الفشل ليس بيدي، حين جرحني أقرب الناس إلىّ حتى والداي وإخوتي دون أن يكترثوا لمشاعري، حين هاجموني بعنف واتهموني

بالتقصير ليغرقوني بأيديهم في بئر الفشل فيمسخني اليأس وأرى الموت أفضل عندي من الحياة، كانت يد يوسف هي اليد الحنونة التي تعيد إليّ إيماني وثقتي بنفسي وتحاول أن ترفعني إلى النجاح بالتحفيز والتشجيع والمواساة، حتى حين كان يوجهني أو يؤنبني أو يتحدث عن نقاط ضعفي، لم يفعل ذلك إلا بكل لين ومودة حتى أتقبل منه كل ما يقول بترحاب، كان يقنعني بحبه لي قبل أن يقنعني بأخطائي

كم أكلت من يده وشربت من يده وتناولت الدواء من يده، كم شكوت إليه فأصغى حتى أفرغت ما في صدري وبرد كبدي، وكم أنقذني من خطيئة كدت أقع فيها وقرعني على خطأ ارتكبته، ودعاني إلى عمل صالح وحضني عليه وأشركني فيه، إن يوسف هو الصديق، وعليّ أن أكون صديقا مخلصا مثله وأنصرف فورا، لذا قمت متجها نحو الباب وأنا أردد في نفسي بكل إصرار:

- إنها لك يا يوسف

فوجئت بيوسف يخرج مبتسما من غرفة المكتب ويسألني:

- محمود، إلى أين تذهب؟

أجبت بارتباك:

- لقد مللت من الجلوس ففكرت أن أقف قليلا، هل انتهيت؟

ابتسم وهو يقول:

- نعم

- أبهذه السرعة؟

غمز بعينه وهو يقول:

- أنت تعلم صديقك جيدا

قاطعنا نفس الصوت الأنثوي يقول:

- دورك يا أستاذ محمود

قال يوسف وأنا على باب غرفة المكتب:

- لن أستطيع أن أنتظرك حتى تخرج، فلدى ميعاد آخر
- حسنا لا بأس، دعني أراك قريبا
- إن شاء الله، حظ سعيد

وقف يرقبني ولم أجد مناصا من هذا فدخلت لأجرى المقابلة الشخصية، لقد تورط الآن ولا أستطيع الانسحاب، ولكن الفرصة لم تفت بعد، وجه «يوسف» المبتسم كان يدل على أنه أبلى بلاء حسنا وعلى أن أحافظ على ابتسامته هذه، فمصيره هو وأسرته أمانة في يدي، وأنا يجب أن أكون صديقا وفيا، ويوسف لابد أن يحصل على هذه الوظيفة بأي ثمن، تقدمت وجلست في مواجهة رجل أحسبه صاحب الشركة أو نائبا عنه لا أعلم يقينا، ولكنه بدأ بقراءة سيرتي الذاتية وبدا عليه الإعجاب بكل ما فيها، ثم اطلع على الاسطوانة المدمجة وما عليها من أعمال وسأل:

- هذه هي أعمالك السابقة

أجبت:

- أجل
- مع فريق عمل؟
- لا إنها من عملي وحدي

تركته يتفحصها بإعجاب وضميري يؤلمني لأنى أنتقص من فرصة «يوسف» صديقي، وفجأة لاحت لي فكرة عبقرية لست أعرف كيف غابت عن ذهني، الحل الذى سيحسم الصراع ويمكّن «يوسف» من شغل هذه الوظيفة، وهو جملة واحدة «لا أعرف»، نعم هذا هو أفضل الحلول، سنتناقش وسيطرح علىّ كثيرا من الأسئلة، وأي سؤال سيطرحه سأجيب عنه بكلمتين هما «لا أعرف» حتى ييأس الرجل منى ويستبعدني عن السباق، وهكذا يخلو الطريق أمام «يوسف»، وبالفعل بدأت المناقشة والأسئلة، كانت الأسئلة الأولى في أدق التفاصيل وكنت أعلم إجاباتها بما لدى من خبرات، ولكنى أجبت «لا أعرف» فتدرج الرجل إلى الأسئلة البسيطة ثم إلى التافهة مقارنة

بما لدى من خبرات ولكنى ظللت أجيبه «لا أعرف . . لا أعرف» والرجل ينظر إلىّ مرة وإلى سيرتي الذاتية مرة وإلى أعمالي مرات حتى كان آخر سؤال الذي أجبته أيضا بلا أعرف، وظل ينظر إلى وجهي بدهشة ثم انفجر ضاحكا، حينئذ لم أستطع أن أكتم غضبى وأنا أقول:

- لست أرى أي داع إلى هذه الضحكات

قال الرجل في خجل:

- عفوا اعذرني ولكن الأمر غريب بحق

- ما الغريب في أنى لا أعرف إجابات على أسئلتك؟

- مقارنة بما لديك من مهارات وخبرات فهو شيء غريب بحق ولكن ليس هذا ما يضحكني

- ما الذي يضحكك إذا

تحول صوت الرجل من الضحك إلى الجد وهو يقول:

- قبل دخولك هنا كان لدى شاب آخر في نفس عمرك ولديه تقريبا كل ما لديك من الشهادات الدراسية والخبرات، ولكنه كان أيضا يجيب دائما بنفس إجابتك على كل سؤال

هنالك فهمت لماذا كان يضحك «يوسف» قبل أن ينصرف ولماذا غمز لي بعينه وهو يتمنى لي حظا سعيدا، ولم أستطع أن أمنع دموعي والرجل يكمل:

- كان كلما سألته سؤالا مهما كان يسيرا لا يعطى نفسه وقتا ليفكر، ولكن يجيب على الفور بنفس الكلمتين فيقول «لا أعرف . . لا أعرف «

obeikan.com

obeikan.com

من أنت

في ظلمة سحيقة لا أثر للنور بها سوى بعض من أشعة القمر التي تنفذ من الشباك الصغير العالي وتتسلل من بين القضبان الحديدية الغليظة، جلس يتذكر ما مر من عمره ويحدث نفسه ويقول:

يا لها من ليلة هي الأشد ظلاما من ليالي عمري كله، كلا فالليالي القليلة القادمة ستكون أحلك وأشد ظلمة، وسأظل أهوى في بئر الظلام السحيقة ليلة بعد أخرى، كل ليلة لا أدرى أكالدهر أم كالبرق تمضي فتدنو منى نهايتي أكثر وتنفد أيامى الباقيات كحبات تنفرط من عقد مقطوع حتى يأتي يومي الأخير حين يلتف الحبل الغليظ الشائك حول رقبتي لأستحيل في ثوان إلى جسد متدل مهشم الرقبة لأفقد أعز ما أملك، سأفقد حياتي

جسدي ينتفض كلما تصورت تلك اللحظة، الرعب يتدفق في شراييني والفزع يطل من عيني حتى تجحظا وأوصالي تنفلت من زمامها حتى لا أقوى على الحركة، وأعلم أنها قادمة لا محالة وأحاول أن أتناساها ولكن أنّى هذا ؟! وهذا اللباس الأحمر يذكرني أن ساعاتي في الحياة أصبحت معدودة وأن عمري أوشك أن ينضب وأن أيامى الأخيرة سأقضيها هنا في هذه الحجرة الضيقة المظلمة

يا حسرتي على عمري وشبابي الذين لم أهنأ بهما، يصيبني الذعر كلما فتح الحارس باب الزنزانة ليضع لي الطعام فأظنه قادما ليسوقني إلى الموت وأنا

obeikan.com

أحاول أن أتفلت منه وانتفض كالعصفور المبتل في يوم عاصف، أوتد قدمي في الأرض لأقاومهم عبثا وهم يجترونني من ذراعي اجترارا كشاة يقتادونها إلى المذبح

ليتهم يقتلونني الآن حتى أرتاح من هذا العذاب، لو أن لدى الجرأة لقتلت نفسي، يا ويلي ما الذي أتى بي هنا، ألم يكن لدى خيار أفضل؟ وحياة أفضل ونهاية أفضل؟ هو السبب، هذا العملاق الضخم الذي لا أعرف حتى الآن من هو، هو الذي تركني لأفعل كل هذه الخطايا، كان يستطيع أن ينقذني من كل هذا، كان يستطيع أن يرجعني عن القتل ويوقفني قبل أن ألطخ يدىّ بالدماء، الندم يجرى مع دمائي الآن ولكن بلا جدوى، فالندم لن يغير نهايتي حتى لو بكيت دماً ومرّا

أشعر أنى أختنق هنا وهذه الدنيا في الخارج كانت أوسع لي، لم تكن حياتي من قبل سيئة، حتى ولو كنت فقيرا أو مسكينا أتكفف الناس في الطرقات وأنام على الحجارة والثرى، ليتني كنت جرذا أنعم بالحياة، لا يهم أي حياة فهي حتما أفضل من الموت، ليته ظهر ليمنعني، كان يستطيع أن يفعل ولو بالقوة، لست أدرى لماذا تركني ولم أدر حقيقته وكنهه، هل هو العملاق عبل الذراعين أم أنه القزم النائم؟ حقا لا أدرى

ظل يفكر في مصيره طويلا وهو يلقى اللوم على ذلك العملاق الذي بدأت قصته معه منذ شهور، حين كان يجلس مع زميليه في العمل مشغولا بالدفاتر ثم هتف به أحدهما فجأة:

- انظر، هل رأيت؟

نظر ولم يلحظ ما يقصد فسأله:

- رأيت ماذا؟

- لقد دخلت نادية وتبعها توفيق بعد دقائق قليلة، أراهن أنهما كانا يتقابلان قبل العمل

- نعم أظن ذلك، يبدو أن بينهما قصة حب

ضحك زميله ساخرا وقال:

- حب! يبدو أنك لا تعرف توفيقا، إنه ليس من الذين يؤمنون بالحب

- إذن هل تظن أن ما بينهما . . .

ضحك زميله بشدة فاستطرد هو:

- يبدو هذا فعلا مع أنك حين ترى نادية لا تتصور أبدا أنها بهذا السوء و . . .

انتفض زميلهما الثالث في غضب وقال:

- ما الذي تقولان، لماذا تتحدثان عن شيء لا يعنيكما وتطعنان في الناس وتخوضان في أعراضهم لمجرد ظنون، حتى وإن كانت ظنونكما صحيحة ماذا يعنيكما من وراء هذا

لم يجد ما يقوله وشعر بالحرج الشديد وألقى اللوم على زميله هذا الشيطان الرجيم الذي لا يكفيه أن يخوض في أعراض الناس ويتكلم بالإثم وبالباطل ولكن يريد أن يجر الجميع معه، وشرد قليلا وهو يفكر في أشياء عجيبة، ويسأل نفسه لماذا خلقنا الله بين كل هؤلاء الشياطين؟ شياطين الجن وشياطين الإنس يدفعوننا إلى الذنوب دفعا وهناك دوما من يغوينا ويزين لنا الشر والسوء ولم يخلق لنا ملكا واحدا ينقذنا من الذنب قبل أن نقع فيه؟

وظل عقله يخيل إليه أن ملكا يجلس إلى جانبه ويرافقه أنّى ذهب ليراقب كل ما يفعله، فإن فعل خيرا تركه وإن هم بشر زجره فامتنع عنه، يا لها من حياة قويمة، والحال هكذا لن يفعل ذنبا أبدا سيكون إنسانا بلا ذنب أقرب إلى الملائكة، داء الإنسان في النسيان ولكن إن وجد رفيقا يذكره دائما بالخير ويمنعه من الشر سيكن بلا شك إنسانا صالحا

عاد لينهمك في عمله حتى انتبه على صوت زميله وهو يهتف:

- انظر، لقد تسلل خارجا مرة أخرى وها هي تتبعه إلى الخارج

obeikan.com

قال باندفاع:

- يبدو أنك محق، أظن أنهما أخذا إذنا وانصرفا، أستطيع أن أخمن إلى أين سيذهبان

- أين ؟، أخبرني

انتفض زميلهما مرة أخرى وقال:

- تبا لكما، ألا تكفان عن هذا اللغو؟!

وقام حاملا بعض الملفات وانصرف وظل زميله الآخر يضحك في سخرية وهو يقول:

- هذا الرجل كتلة من الملل

أجابه وهو يضحك:

- حقا

- هل خمنت إلى أين سيذهبان؟

- الأمر لا يحتاج إلى كثير من الذكاء . . .

وقبل أن يكمل كلماته ظهر أمامه من الفراغ فجأة رجل ضخم طوله يتجاوز المترين، له بنية قوية وعضلات مفتولة وذراعان قويتان وساعدان يغلفهما شعر كثيف، ظهر وكأنه نشأ من العدم فجأة ونظر إليه بعينيه الواسعتين وزجره قائلا:

- لا تغتب أحدا

رجع بالكرسي إلى الوراء وهو يهتف في ذعر:

- ماذا! من أنت؟ من أين أتيت؟

ظل الرجل العملاق صامتا وهو ينظر إليه نظرة صارمة جمّدت الدم في عروقه وزميله ينظر إليه بدهشة ويقول:

- ماذا قلت؟

نقل بصره بينه وبين الرجل العملاق ثم أشار وهو يقول:

- أنا لا أعنيك بل أعنى هذا الرجل

obeikan.com

نظر زميله بدهشة أكبر وهو يقول:

- أي رجل تعنى

- هذا الواقف أمامي

ضحك زميله وهو يقول:

- هل تعنى توفيقا

نظر إلى الرجل الضخم مرة أخرى ونظرته الجامدة التي ترهبه وهو يقول لزميله بصرامة:

- لا تحدثني عن أحد بعد الآن، أنا لا شأن لي بما يفعل الناس

نظر إليه زميله متعجبا بينما أخذ العملاق يتلاشى شيئا فشيئا وحاول هو أن يتناسى الأمر ويعود إلى عمله، وبعد دقائق كان زميله قد ذهب ليسلم بعض الملفات، وبقي وحده في غرفة المكتب، ظن أنه ربما كان يتخيل أو أنه لم يفق بعد، وشعر أنه في حاجة إلى بعض القهوة فنادى الساعي بصوت عال وقال:

- يا كمال، كمال

وهنا ظهر له نفس العملاق فجأة ينهره بعنف ويقول:

- رجل في سن والدك وربما أكبر، كيف تناديه هكذا، إنه يعمل معك لا عندك، فهو موظف مثلك، تأدب

قال في خوف:

- سأفعل، أقسم أن أفعل، ولكن أرجوك لا تظهر فجأة هكذا ولا تنهرني بهذا الشكل، يمكنك أن تنبهني برفق، كن رفيقا معي وأنا سوف أغير من طبعي شيئا فشيئا

تلاشى العملاق مرة أخرى ونادى هو بصوت عال:

- يا سيد كمال

جاء الرجل مسرعا وهو يقول:

- أوامرك

- العفو، أستأذنك في قليل من القهوة
- على الفور يا سيدي
- أشكرك جزيل الشكر

خرج الرجل متعجبا من أسلوبه الجديد اللبق، وبقي هو حائرا، يبدو أن الله وهبه هذه الأمنية العابرة، من الآن سيظهر له هذا العملاق كلما همّ بفعل خطأ ليوقفه قبل أن يفعله أو يتمادى فيه، لم يعد يدري هل هذا شيء حسن أم لا، فهذا العملاق بظهوره المفاجئ والمخيف سيجعله في ارتباك وقلق دائمين

حاول أن يعود فيهتم بالعمل، أمسك بعض مسودات الأوراق وكورها وقبل أن يلقيها من النافذة وجد من يظهر فجأة ويهتف به:

- ليس من النافذة، بل ألقها في سلة المهملات

فزع مرة أخرى فقال في غضب:

- اسمع، ليس من المعقول أن تظهر لي هكذا فجأة لتنبهني في كل صغيرة وكبيرة، يمكنك أن تنبهني قبل أن أقع في خطأ كبير فحسب، هل تفهم هذا؟

ظل العملاق صامتا ثم تلاشى في هدوء، وبعد قليل جاء أحد المواطنين يشكو صعوبات تواجهه ومشاكل ليس لها حلول ورجاه كي يسهل له الأمر وأخرج بعض المال، فمد يده كالعادة ليلتقط المال منه فإذا الرجل الضخم مرة أخرى يظهر ويهتف به:

- لا تقبل رشوة

انتفض في ذعر وصاح في الرجل أمامه:

- اذهب الآن، اخرج من هنا، هيا

خرج الرجل متعجبا والتفت هو إلى العملاق وقال:

- لن أقبل رشوة بعد الآن ولكن أرجوك هيئتك هذه تفزعني، أليس لك هيئة أخرى؟ أعنى هل تستطيع مثلا أن تظهر لي على هيئة رجل بدلا

من هيئة العملاق هذه

تلاشى العملاق في صمت وبعد يوم جاء رجل عجوز لينهى بعض الإجراءات اليسيرة، ولكنه أخذ يعقد له الأمور ويدخله في متاهات حتى يحصل على رشوة، وفى هذه المرة ظهر له العملاق ولكن كما طلب منه على هيئة رجل وقال بصوت رجل وبكلمات مختصرة:

- لا تعقد له الأمور

هتف بالرجل العجوز في ضيق:

- أعطني الأوراق

وأخذ الأوراق منه وأنهى الإجراءات بسرعة بينما تلاشى الرجل سريعا مرة أخرى، ومع أنه تمنى هذه الأمنية ولو للحظات إلا أنه كان حانقا ودائم الضجر من هذا الرجل الذي يلاحقه فيحذره ويلومه دائما

ثم جاءت امرأة عجوز تريد إنهاء بعض الإجراءات وبعد قليل ظهرت حسناء شابة ذات غضاضة ورونق يبدو عليها النعيم والثراء، ذهل هو لحظات ثم قال للعجوز:

- حسنا تعالى في الغد حتى نتم ما بقي من إجراءات
- لماذا ليس اليوم يا ولدى
- لدى بعض الأمور الهامة الآن
- أرجوك أريد أن أنهى الإجراءات اليوم حتى يصرف لي معاش زوجي

صاح بها:

- قلت غدا

قامت العجوز بانكسار وخرجت بينما قام هو بترحاب ليقابل المرأة الشابة ويقول:

- أهلا وسهلا، تفضلي بالجلوس

ظهر له الرجل مرة أخرى وهو يؤنبه ويقول:

- لم أخرجت المرأة العجوز، أليست من حضرت أولا؟

قال بصوت خافت:

- دعني الآن

قالت الحسناء:

- ماذا؟

- لا شيء سيدتي، مريني

- جئت لأصرف معاش زوجي فواجهتني بعض العقبات

- لا عقبات أبدا ما دمت أنا هنا في خدمتك، أخبريني متى توفى زوجك؟

- إنه لم يتوف

- كيف ذلك ؟!

- لقد أحيل إلى المعاش

- هل تعنين أن زوجك بلغ سن المعاش

قالت في حزن:

- نعم

ثم استطردت باكية:

- أعلم أنك تتعجب أن امرأة مثلى تجاوزت العشرين بسنوات قليلة هي زوجة رجل جاوز سن المعاش ولكن هذه هي الحقيقة، لقد ظلمتني الدنيا وظلمني النصيب

أخذت تكفكف دمعها فقام من مكانه وجلس في مواجهتها وقال:

- حسنا لا تبكي أرجوك

طالع الأوراق التي كان بها خطأ صغير وظل يعقد لها الأمور ويقول:

- سيحتاج الأمر لعدة خطوات حتى نصلح هذا الأخطاء، ولكن لا تقلقي، سأجلس معك مرة أخرى لأشرح لك ما عليك فعله

- حسنا هل آتى إليك غدا

obeikan.com

- حسنا في الغد ولكن . .

استحثته قائلة:

- ماذا؟ هل من مشكلة؟

قال وقد تصنع الخجل:

- أرجوك لا تسيئي فهمي، ولكن المكان هنا مزدحم دائما ولا فرصة للكلام ولا للتفكير

- حسنا أين تريد أن نلتقي

ابتسم في ظفر وهو يقول:

- في المكان الذي يناسبك

ظهر الرجل فجأة وهو يقول:

- لماذا تريد أن تلتقيها خارج مكان العمل

قام واقترب من الرجل وهمس إليه:

- أنصت إليّ، لا ينبغي أن تفزعني هكذا في كل مرة، أعلم أني مخطئ ويمكنني تفهم الخطأ، ويمكنك أن تظهر لي برفق وأنا سأدرك ماذا تريد أن تقول دون أن تزعجني بصوتك وهتافك

تلاشى الرجل مرة أخرى، وتجددت اللقاءات بينه وبين المرأة، ذات لقاء كانا يجلسان في مطعم هادئ بعيدا عن الأنظار، وكانت تسرد له القصة كاملة منذ أن ولدت في أسرة فقيرة حتى تزوجت الشيخ الكبير من أجل المال، ومع كل دمعة تنزل كان يربت على يدها حتى أمسك كفها في النهاية، وهنا ظهر الرجل فجأة وقال بصوت خافت:

- احذر، لا يحق لك أن تمسها

صاح فيه بغضب:

- أريدك أن تخرس هل فهمت؟ لا أريد أن أسمع صوتك مرة أخرى

نظرت إليه بدهشة فعلل قائلا:

- عفوا لقد ظننت أن أحدا يحدثني، هلا انصرفنا؟

obeikan.com

انصرفا معا واستمرت اللقاءات بينهما وانتقلت من الأماكن العامة إلى الأماكن الخاصة حتى جاء يوم كانا يجلسان وحدهما وهى تشكو إليه كيف أنها لم تعرف معنى الحب مع زوجها العجوز وأنها تشعر أنه الرجل الوحيد الذى استطاع أن يفهمها، كانت تبكى حين قام هو وجفف دموعها وضمها إليه برفق وهنا ظهر الرجل مرة أخرى وأخذ يحدثه ولكن بلا صوت كأنه أخرس، لقد كان فمه يتحرك ولكنه لم يسمع له صوتا، فأشار إليه أن انصرفْ فتلاشى فجأة كدأبه، ثم ذهبت وأحضرت كأسا مسكرة وقدمتها إليه وهى تقترب منه وتمسك يده فاقترب منها ولثمها وهنا ظهر الرجل مرة أخرى ولكن هذه المرة كان وجهه غريبا بحق، لقد كان مصمتا بلا شفاه أو شق للفم وأخذ يشير إليه حتى يبتعد عنها ولكنه أدار وجهه وكأنه لا يراه، وبدأت بينهما علاقة من نوع آخر تلك التي تنشأ بين رجل عازب وامرأة أشبه بالأرملة متزوجة شيخا عجوزا، وتجددت اللقاءات وفى كل مرة كانا يتوغلان في العلاقة أكثر حتى بعد أن ظهر الرجل الأبكم عدة مرات وهو يتجاهله كأنه لا يراه وفى كل مرة كان الرجل يتضاءل ويتقلص حجمه ويصبح جسده أقل طولا حتى ظهر له مرة على هيئة قزم صغير بلا فم يشير إليه كي يبتعد عنها ولكنه لم يطعه وزجره بعنف وقال :

- أغرب عني، أريدك أن تغرب عن وجهي هل فهمت؟ لا أريد أن أراك مرة أخرى

وهنا فعل القزم فعلا غريبا، لقد جلس على كرسي إلى جوارهما واستند إلى ذراعه ونام، وتركهما معا بعد أن أصبحا زوجين بلا عقد، ومرت الشهور وهما يقتربان أكثر كل يوم حتى شعر أنه لا يستطيع أن يحيا دونها، عرض عليها أن يتزوجها بعد أن تطلب الطلاق من زوجها ولكنها رفضت وخشيت أن تفقد ثروته، ومن هنا جاءت الفكرة، القتل

لم تتردد هي الأخرى في أن تدرس هذا الحل، بل أخذت تعطيه أفكارا وبدائل لينتقي منها الوسيلة المثلى وهنا ظهر القزم لآخر مرة وقد تقلص كثيرا حتى

أصبح أشبه بدمية طولها لا يجاوز الشبرين، ظهر نائما ثم هب فجأة وأخذ يشير إليه ثم يشير إلى الحائط فالتفت ينظر ما بال الحائط فوجد صورة زوجها الشيخ العجوز تتشكل على الحائط، وأخذ القزم يشير إلى الحائط مرات ومرات فتتبدل الصورة إلى صورة أخرى لنفس الشيخ العجوز وكأنه يستحلفه ألا يقتل نفسا بريئة بغير ذنب وهنا اندفع نحو القزم في غضب وصاح به:

- ماذا تريد منى، انصرف الآن وإلا قتلتك أنت الآخر

ظل القزم ينظر إليه في صمت ويشير إلى الحائط فتتبدل الصور وكأنه يستعطفه من أجل حياة ذلك المسكين، ولكنه اشتعل غضبا بعد أن بيت أمره وعقد العزم على قتله، فمد كلتا يديه نحو القزم وأطبقهما على عنقه واعتصرها بغضب شديد فأغمض القزم عينيه ورفع عنقه وكأنه يختنق ويموت ثم تلاشى من بين يديه ببطء لآخر مرة، وخلال أيام وضعا الخطة ولم يتردد لحظة في أن يمسك السكين ويطعن زوجها عدة طعنات تودى بحياته، أملا أن يحقق حلمه مع الفاتنة ويحيا معها في ظل الحب والثراء، ولكن لم تسر الأحلام كما رسماها بيديهما، وتسارعت الأحداث ليجد نفسه أخيرا يجلس هنا بلباس أحمر ينتظر إمضاء حكم بالإعدام

أرجع رأسه إلى الوراء وأخذ يضرب بها الجدار خلفه وكل مضغة من جسده يعتصرها الندم وهو يبكي ويردد في نفسه ليتني ما فعلت، ليتني ما فعلت وأطبق جفنيه في حسرة حتى سمع صوت غطيط عال ففتح عينيه في ذعر ليجد أمامه في الزنزانة آخر شخص يمكن أن يتوقعه، إنه العملاق

كان هذه المرة عملاقا بحق، طوله يتجاوز الأمتار الثلاثة ولحيته خشنة وذراعاه غليظتين مفتولتين من العضل وشعره يغطى بكثافة كل ما ظهر من جسده، وهو يجلس على الأرض ويسند ظهره ورأسه إلى الحائط ويغط في نوم عميق، وهنا قام ثائرا ووقف يحدق العملاق ببصره ويهتف بحدة:

- أنت!

استيقظ العملاق وقام ببطء ليقف أمامه فاندفع نحوه بغيظ يهزه ويضربه ويقول:

- آلآن أتيت، آلآن ظهرت مرة أخرى، بعد أن تركتني أقتل وأضيع كل شيء، آلآن عدت بعد أن ضاع مستقبلي وانتهت حياتي، أين كنت من قبل، لم لم تظهر لتنقذني وتوبخني وتزجرني قبل أن أقدم على صنع تلك الجريمة؟، لماذا اختفيت ولم تأت لتمنعني ولو بالقوة، تركتني أفعل ما فعلت وأنت نائم هنا!، لماذا أتيت الآن! لتشاهد رجلا ميتا في آخر ساعات حياته، أنت السبب، أنت سبب كل ما حدث

لم يبد أن ضرباته قد أثرت في العملاق الذي مد يديه القويتين وأمسك كتفيه وانحنى لينظر إليه عن قرب بعينيه الكبيرتين الجاحظتين وهو يقول بصوت عميق وكأنه يأتي من خلف أسوار الجحيم:

- أأنا السبب؟ الآن تلومني وتقول إني أنا السبب؟

حاول أن يتملص من يديه وهو يقول:

- نعم أنت، لولا غيابك لما ارتكبت الخطيئة، ولولا غيابك ما قتلت

ضغط العملاق على كتفيه وهو يقول:

- تلومني الآن وتلقى على ذنبك الذي اقترفت، تلوم غيابي وتنسى من الذي أمرني أن أغيب، ألم تطلب أولا أن أغير هيئتي، ثم طلبت ألا أذكرك سوى بكبائر الذنوب فحسب، ثم طلبت منى ألا أتحدث وأكتفي بالإشارة؟ ثم ماذا فعلت بعد ذلك كله؟ لفت وجهك عنى وكأنك لا تراني

قال وهو يبكي:

- من أنت؟ لم دخلت حياتي فجأة ثم تركتني وأنا في أمس الحاجة إليك

- أنا لم أفارقك قط، ولم أدخل حياتك فجأة، لقد كنت معك منذ أن ولدت، يوما بيوم وساعة بساعة

- أنا لم أرك قط سوى من شهور

- ولكنى كنت معك دائما، حاولت كثيرا أن أجعل منك إنسانا صالحا ولكنك كنت فاسدا وكاذبا

- لو كنت بقيت معي لما صرت كاذبا ولا مسجونا هنا

- ومن الذي طلب منى أن أختفي؟ من الذي أمرني أن أخرس؟

- ولم استمعت إلىّ!

- لم أكن أستطيع أن أجبرك، كل ما كان في وسعى أن أنذرك فحسب

- أخبرني من أنت؟ ملاك أم شيطان؟

قرب منه وجهه أكثر وقال:

- أما زلت لا تعرفني

هتف بذعر:

- بل أعرفك، أنت الشيطان

وأخذ يضربه بقبضتيه حتى غضب العملاق فأمسك عضديه ورفعه عاليا وقربه من وجهه وحدجه بعينين جاحظتين وهو يقول بغضب:

- أأنا الشيطان؟!، أأنا من كذب واغتاب وارتشى؟، أأنا من خاض في الأعراض وتكبر وغدر وخان، أأنا من قتل عجوزا بغير ذنب ليأخذ زوجته وماله، تذكر ما فعلت وستعرف أنى لست أنا الشيطان، إنما الشيطان هو أنت

أخذ يردد في ذعر:

- من أنت؟ أخبرني من أنت

- أنا النعمة التي وهبها الله لك لتفرق بها بين الحق والباطل، أنا الذي أذكرك إن نسيت وأنبهك إن غفلت، أنا الذي ألومك وألهب مضجعك حين تكسب إثما أو تظلم بريئا

أخذ يردد في حيرة:

- من؟ من؟

- أنا العملاق الذي يحيا داخلك ليحرسك من الخطيئة، ثم أمرته أن

obeikan.com

يتقزم ويخرس وينام، بل أردت قتله حتى لا تراه أبدا فخنقته بكلتا يديك، أنا من استهنت به فأهنته ولم تستمع إليه والآن تجلس هنا وتلقى اللوم عليه، أما زلت لا تعرف من أنا؟

ثم هتف به بقوة:

- أنا ضميرك

وألقاه من بين يديه فسقط من عل وارتطم بالأرض بعنف وتلاشى العملاق في طرفة عين ثم علا صوت خطوات قوية متسارعة، وانفتح الباب الحديدي فجأة مطلقا صريرا عاليا، ودخل الحرس.

obeikan.com

الكلب

تلقيت اتصالا من أحد أصدقاء الدراسة القدامى، منذ سنين لم أسمع صوته ولم أعرف أخباره فالعمل والزواج يستحوذان على كل وقتي واهتمامي، تحدثنا طويلا عن الأمس، وزلقتنا ذكرياتنا في حديث طويل عن الأيام الجميلة التي عشناها معا في ذلك الحين واستقر الأمر على أن دعاني لأزوره في الصعيد فوافقت بلهفة، طلبت من زوجتي أن تأتى معي ولكنها رفضت، فهى تحيا معى في رفاهة ولم تعتد الجو الحار وحياة البسطاء ولكنها لم تمانع في أن أذهب وحدى وذهبت في يوم العطلة، كانت أول مرة أرى بيته وحين اقتربت وجدته يجلس في انتظاري في حديقة البيت يلعب مع كلبه، ولما رآني قيد الكلب سريعا وأوزف إلىّ واستقبلني استقبالا حارا ،وجلسنا معا في الحديقة نتحدث لساعات عن الحياة والذكريات والعمل والمستقبل حتى لاحظ أنى أنظر كثيرا إلى كلبه المقيد فسألني:

- هل يزعجك الكلب؟ لا تقلق إنه مقيد

أجبته بابتسامة:

- كلا أنا لست قلقا على الإطلاق ولكنه يثير اهتمامي فحسب، هل تعلم حين كنت صغيرا كنت أتمنى أن يكون لدى كلب، لقد كنت أحب الكلاب حبا كبيرا ولكن والدتي كانت تكرههم بشدة، أذكر يوما عرضت عليها الفكرة، أعنى أن أربى كلبا في منزلنا فثارت وقالت وهل فرغت من

obeikan.com

همك حتى تبلوني بكلب
ضحك معي ضحكات ذكرتني بأيام الدراسة حين كنا تلاميذ لا نحمل للحياة هما، ورد صديقي قائلا:
- أما نحن فالأمر ليس حبا فحسب، ولكنا دون حراسة الكلاب لا يمكن أن نحيا في أمان
قلت في تأمل:
- العجيب أني أتممت دراستي وعملت وتزوجت وأصبح لدى فيلا كبيرة ذات حديقة واسعة ولكنى نسيت هذا الأمر تماما، حتى ذكرني كلبك بهذه الأمنية القديمة
قال لي:
- ربما من حظك أن لدى كلبة قد أنجبت منذ أيام أربعة كلاب صغار، ما رأيك في أن تأخذ أحدهم إن شئت؟ إنه جيد للحراسة
اتسعت عيناي من نشوة مثل الأطفال الصغار وأنا أقول:
- حقا! هل أستطيع أن آخذ كلبا منهم، ألن تحتاج إليه
ابتسم صديقي وقال بمروءة أهل الصعيد:
- تستطيع أن تأخذ الأربعة وأمهم والدار كلها إن شئت
ضحكت وقلت:
- كلا، واحد فقط يكفي حتى أستطيع أن اتكفل بنفقاته ونفقات دراسته
ومرة أخرى ضحكنا ملء قلبينا ثم تحدثنا كثيرا عن أشياء شتى حتى أتى موعد الغداء ولحقنا بالأسرة الكبيرة في جو من الألفة والمودة لم أشهده إلا قليلا طوال حياتي، ثم أتى الليل وحين ودعته كي أنصرف طلب منى أن أنتظر قليلا وغاب ثم أتى يحمل جروا صغيرا تلقيته بلهفة وكأنه طفلى الصغير ثم ودعت صديقي وعدت من فورى إلى منزلي وفى الطريق توقفت واشتريت له طعاما وحين وصلت الفيلا تركته في الحديقة وصعدت فوجدت زوجتي

نائمة، لم أشأ أن أوقظها فنمت إلى جوارها من فرط التعب
في الصباح التالي ألقيت نظرة سريعة على الكلب وذهبت إلى العمل وحين رجعت وجدت زوجتي في انتظاري، وبختني كثيرا لأنى أحضرت الكلب دون إخبارها، حاولت أن أقنعها أنه ضرورة لحراسة الفيلا فصمتت على مضض وكلفني هذا سوارا ذهبيا جديدا حتى ترضى عنى وتنسى ذلك الأمر وتترك لي الكلب وبالفعل نسيت أمر الكلب سريعا، ومرت الشهور والجرو كبر وتعلقت به بشدة أصبح يرافقني في كل مكان، وكل الوقت الذى كنت أقضيه وحيدا في غياب زوجتي صرت أقضيه في اللعب معه، فزوجتي سيدة مجتمع من الطراز الأول وتقضى كثيرا من وقتها خارج المنزل في سهرات وحفلات وتتركني وحدى لأنى لا أحب هذه الأجواء الصاخبة، وربما هذا ما جعلها لا تهتم بأن يكون لدينا طفل، فلم تستجب إلى رغبتي قط ولم تضح بقليل من وقتها لتذهب معي إلى الطبيب .
ولكن هذا الفراغ الذي أحياه وحدي في الفيلا الكبيرة ملأه الكلب وأصبح جزءا من حياتي حتى جاء يوم عدت فيه من العمل لأجد زوجتي متجهمة وحين سألتها عن السبب انفجرت في وجهي غضبا وقالت إنها لا تريد أن يبقى الكلب في المنزل أكثر من هذا، حاولت أن أقنعها مرة أخرى ولكن لست أدرى لماذا شعرت بكراهيتها الشديدة له، هو أيضا لم يكن يحبها، رجوتها مرارا كي تتركه لي ولكنها رفضت بشدة وقررت أن تمنحني أسبوعا واحدا حتى أتخلص من الكلب
وخلال هذا الأسبوع كنت كل يوم أجلس مع الكلب وأطعمه بيدي وأنا حزين لأنى لم أستطع أن أحقق أمنيتي القديمة مرة بسبب أمي ومرة بسبب زوجتي ،ولكنى مضطر أن أتخلى عن رغبتي مرة ثانية، لا أستطيع أن أرفض لزوجتي طلبا، إنها حب العمر الذى عانيت من أجله كثيرا، حين تقدمت لخطبتها طلب منى والدها مهرا كبيرا وأثاثا فاخرا وحليا من الذهب والماس، لم أكن أستطيع حينئذ أن ألبى كل هذه الطلبات ولكنى ضحيت بكل شيء،

بعت سيارتي وأنفقت كل ما ترك لي والدى من الميراث واقترضت حتى أتزوجها وأمنحها هذه الحياة الرغدة، لا أستطيع أبدا أن أتحمل غضبها علىّ أو أن أؤخر عنها رغبة، حتى حين ذهبت وحدى إلى الطبيب وأجريت بعض الفحوص وتأكدت أن ليس لدى مانع من الإنجاب وأن التفسير الوحيد أن المانع لديها، مع هذا لم أحدثها عن هذا الأمر مرة أخرى، لا أريدها أن تغضب أو تحزن ولن أسامح نفسى أبدا إن تسببت في جرح مشاعرها

وفى نهاية الأسبوع عدت من العمل فوجدت صديقي المقرب ماهرا ينتظرني في الحديقة مع زوجتي وكانا يضحكان في مرح فتوجهت إليهما وسلمت على «ماهر» بحرارة ولكنى وجدت وجه زوجتي قد تحول إلى وجه عابس وهى تنهرني لأن الأسبوع انقضى والكلب لا يزال موجودا فأكدت لها أنى سوف أتخلص منه قريبا، تركتنا وذهبت لتحضر الشاي وطلب منى «ماهر» مبلغا من المال، وحين سألته لماذا يريد المال أخبرني بقصة واهية لم تقنعني، فواجهته بالحقيقة، والحقيقة أنى أعلم أنه ينفق المال ببذخ على ملذاته، بين المخدر والنساء، ولكنه أقسم لي أنها ستكون آخر مرة يطلب المال منى وأنه امتنع عن ذلك كله وبدأ حياة جديدة

أعطيته المال وأنا لا أصدقه ولكن لا أستطيع أن أرده خائبا، فهو صديقي على أي حال ويجب أن أتحمله حتى يعود إلى رشده، وعادت زوجتي بالشاي وجددت الحديث عن الكلب وأنه لا يمكن أن يبقى في المنزل يوما آخر، وكان هذا يعنى أنه لا مناص، وأن علىّ أن أتخلص من الكلب اليوم وعلى الفور

أخذته ومشيت بعيدا ثم تركت سلسلته الحديدية من يدى وأشرت إليه أن يرحل وانصرفت ،ولكنه ظل يتبعني، أشرت إليه مرارا لكى يرحل ولكنه ظل يمشى ورائي، حاولت أن أنفره لينصرف ولكن في كل مرة كان يبتعد خطوات قليلة ثم يعود فيتبعني، لم يترك لي خيارا سوى أن أدفعه بقدمي حتى يرحل فضربته برجلي ولكنه ابتعد قليلا ثم عاد إلىّ مرة أخرى، لم أكن

مستعدا لمشاجرة أخرى مع زوجتي لذا كنت مضطرا إلى أن أقسو عليه كثيرا وأوجه له عددا من الركلات المتتابعة ختمتها بركلة قوية في بطنه، وبالفعل تلقى ركلتي الأخيرة وفرّ بعدها بعيدا وعدت أنا إلى الفيلا لأخبر زوجتي أنى فعلت ما تريد، ولما عبرت باب الحديقة سمعت صليلا وشعرت بشيء يتحرك خلفي فالتفت فوجدت الكلب يعبر عن يميني إلى الداخل، يبدو أنه كان يتبعني دون أن ألحظ هذا، ولم أتوقع أنه سيفضل أن يعود إلى بيته الصغير في حديقتي مطوقا بسلسة من حديد على أن يكون حرا في الخارج، ولكن تبين لى أنه يفضل البقاء معي مكبلا على أن يصبح طليقا بدوني، وكان نصيبي مشاجرة أخرى مع زوجتي بعد أن حلفت لها أكثر من مرة أنى حاولت أن أبعده ولكنى أخفقت، في النهاية وعدتها أنى سوف أنهى هذا الأمر غدا

وفى اليوم التالي عدت من العمل ولم أضع وقتا حتى لأغسل وجهى فأخذت الكلب بعيدا وحتى لا يتكرر ما حدث من قبل وحتى لا أقسو عليه كما فعلت من قبل ذهبت إلى رجل يقف على جانب الطريق، كان الرجل مفتول العضلات، يلبس قميصا أحمر فاقع اللون وطلبت منه أن يمسك بالكلب لدقيقة حتى أدخل وأشترى بعض الحاجات من محل قريب، فنظر إلىّ بارتياب فتعللت بأن المحل يمنع دخول الكلاب فوافق بعد جهد وذهبت إلى المحل وخرجت من الجانب الآخر له، وذهبت إلى المنزل بسرعة ودخلت إلى الحديقة ونظرت خلفي ويمينا ويسارا فلم أجد الكلب، فناديت زوجتي لأخبرها أنى فعلت ما تريد ولا داعى لأن تستمر في غضبها وحين قلت لها أنى تخلصت من الكلب وجئت توا، وأنها لن تراه مرة أخرى صاحت في وجهى بغضب:

- إذا فما هذا الذي يقف وراءك؟

نظرت خلفي لأجد الكلب يقف عند باب الحديقة ساكنا ويهز ذيله في مرح وحين وجدت في فمه قطعة من قميص أحمر فاقع اللون فهمت ما حدث،

وكانت مشاجرة أخرى مع زوجتي وبعد معاناة أقنعتها أن تعطيني فرصة أخيرة، وكانت الفرصة الأخيرة

هذه المرة كان يجب أن أضع خطة محكمة حتى وإن كانت قاسية حتى لا تفشل مرة أخرى فيستمر الخلاف بيني وبين زوجتي، فأخذت الكلب وذهبت به إلى مكان شاسع مهجور اعتاد الناس أن يلقوا فيه المخلفات والقمامة وسرت في حذر بين قطع الحديد المسنونة والصفيح الحاد وبقايا الزجاج المهشم والمسامير وربطت الكلب بإحكام في هيكل سيارة قديمة حتى أطمئن أنه لن يعود مرة أخرى، وترددت لحظات قبل أن أرحل حين نظرت إليه فرفع رأسه عاليا وهز ذيله وكأنه يحاول رغم القيد أن يتبعني ثم تركته وانصرفت وأخذ ينبح من خلفي عدة مرات وكأنه يناديني ولكنى كنت قد حسمت أمرى، أعلم كم كنت قاسيا حتى أنى لم أفكر أنه ربما يهلك جوعا أو عطشا، ولكن كان علىّ أن أفعل، فأنا لا أريده أن يعود إلى البيت مرة أخرى فتشتعل الخلافات مرة أخرى بيني وبين زوجتي

وعدت إلى المنزل على الفور وأخبرت زوجتي أنى فعلت كل ما أرادت ولكنها لم تبال، ربما لأنها ما زالت متأثرة بسبب الخلاف الذي أحدثه وجود الكلب ؟، لا بأس فأنا أعرف كيف أصالحها بهدية نفيسة، ومرت الأيام وعدت لحياتي الفارغة، صديقي الذي لا أراه إلا وقت حاجته، وزوجتي التي لم أعد أشعر أنى شيء ذو قيمة لديها، فهي لا تعبأ بي مهما فعلت من أجلها ومهما حاولت إرضاءها بكلماتي أو بالهدايا ولا أدرى ما السبب

ذات يوم استيقظت مبكرا لأذهب إلى العمل وفى منتصف الطريق تلقيت مكاملة من زوجتي على غير العادة، سألتني أين أنا فأخبرتها أنى أوشكت أن أصل إلى العمل وأنى سأتأخر قليلا ولن أشاركها الغداء اليوم، وحين سألتها هل تريد منى شيئا أجابت أنها أرادت أن تطمئن أنى بخير وستعود إلى النوم مرة أخرى، يبدو أنها أخيرا شعرت بحزني وأنها أهملتني كثيرا خاصة في الشهور الماضية، وصلت إلى العمل ،اخرجت حقيبتي من السيارة

وبعض لوحات الرسم فأدركت أنى نسيت بعض لوحاتي، عدت إلى السيارة مرة أخرى وانطلقت عائدا إلى المنزل لآخذ اللوحات، مررت من الحديقة وفتحت باب الفيلا وأغلقته خلفي برفق حتى لا أوقظ زوجتي، صعدت على أطراف أصابعي ودخلت مكتبي والتقطت اللوحات ثم خرجت في هدوء وحين مررت قريبا من غرفة نومى وجدت الباب مغلقا وسمعت أصواتا تأتى من حجرة نومى، ظننت أن زوجتي استيقظت وتشاهد التلفزيون، فاقتربت أكثر من الباب فسمعت ضحكات لرجل وامرأة، ضحكات من الحقيقة ترتفع وتمتزج، ارهفت أذنى واستمعت طويلا حتى لم يعد لدى شك في أن أمرا ما يحدث في الداخل، أمرا لا أقوى على تصديقه، أمسكت مقبض الباب وأدرته ولكنه كان مغلقا من الداخل، طرقت الباب بشدة فتوقفت الأصوات فجأة، ضربت الباب بكتفي عدة مرات واستجمعت قوتي في ضربة أخيرة فانفتح الباب بعنف، ألا ليته ما انفتح، لقد كان يطل على الجحيم .

كانت زوجتي وصديقي في سريري نائمين بلا شيء يسترهما وأنا أقف أمامهما كالأشل، واجما كصنم من حجر أنظر إليهما تدور عيناي ويلتهب قلبي وكأن القِطر ينصب فوق رأسي فيشعلني ويوغر صدري وأنا مبهوت من هول ما أرى، لا أكاد أعي ولا ينطلق لساني أحاول أن أكذّب ما تراه عيناي وهما يحاولان أن يستترا والفزع يصيح من عينيهما، قلبي يخفق بقوة حتى تكاد دقاته تخرق أذني وأنفاسي القصيرة تتلاحق ورأسي يدور كلما فار الدم الذى يئن ويغلى في شراييني وأنا أعتصر قبضتي بقوة وأبحث بعيني في المكان عن أي سلاح حتى أقتلهما بلا رحمة، أخذت خطوة نحوهما ولكن كانت قدماي في ثقل الحديد، ثم بدا وكأن جبلا هبط على ظهري وأنا أحاول أن أتشبث بأي شيء يصادف يدىّ المرتعشتين كيلا أسقط دون جدوى، لقد انهارت مقاومتي وسقطت في هوة بلا قرار وتلاشى كل شيء من حولي .

حين فتحت عينيّ لم أكن أعرف أين أنا أو كم مر من الوقت كل ما كنت أراه أمامي خيالات لزوجتي الخائنة مع صديقي المقرب في بيتي وفى حجرتي

وعلى فراشي، كان هناك حريق في صدري لا يهدأ، أشباح لاثنين من العاشقين تقتحم هدأتي وتدفعني إلى الجنون، أكبت أحزاني في صدري حتى يضيق بأنفاسي، وتمتزج أناتي ببكاء حارق ولا أهدأ حتى يأتيني الطبيب ويحقنني بالمهدئ، لم يكن جسمي يحتاج إلى علاج بقدر نفسى التي لن تشفى طوال حياتي فالخنجر لم يستقر في جسدي ولكنه استقر في القلب، غرساه بأيديهما دون رأفة أو رحمة، حياتي بترت وكأن كل ما مر بي من قبل كان وهما، وكل ما لدى من ماضي وذكريات جميلة نسفاه كله، وبقى بقلبي جرح ثخين لا يتوقف عن النزف حتى أنى أستيقظ فجأة في جوف الليل أبكى وأصرخ كالمجنون

بعد أسابيع خرجت من المستشفى كطفل جاء إلى الحياة توا، لا أعلم ماذا أفعل، أين أذهب وكيف سأعيش، لست قادرا على أن أنظر إلى بيتي مرة أخرى، كل ما هناك يذكرني بيوم كأنه كان يوم وفاتي

قررت أن أجمع حاجاتي وأذهب إلى أي مكان آخر حتى أبيع الفيلا بكل ما فيها، فاقتربت منها وعقلي في صراع مع ذكرياتي البائسة حتى ظننت أنى سيغشى علىّ، عبرت الحديقة وفتحت الباب، إن المكان خال من كل شيء، يبدو أن زوجتي لم تضع وقتا، لقد أخذت أثاث البيت وربما باعته ولن أتعجب إذا علمتُ أنها رفعت دعوى لتطلب الطلاق وتطلب مستحقاتها كاملة

شعرت أنى لم أعد أستطيع أن أعتمد على رجلي أكثر من هذا، قواي خائرة وأوصالي تربطها خيوط رفيعة توشك أن تتقطع، خرجت إلى الحديقة وجلست على الأريكة ورأسي يدور بآلاف الفكر

لماذا تخونني زوجتي؟ ومع من ؟! مع صديقي؟ وهو كيف أرتضى أن يخونني معها ؟، أوبعد كل ما فعلت من أجلهما يكون هذا جزائي؟ لم أتخيل قط أن يكونا بهذه الحقارة، صديقي الذي وثقت به وأدخلته بيتي واستأمنته على عرضي حتى سمحت لزوجتي أن تستقبله في غيابي، كنت مخلصا معه إلى

أبعد الحدود ووقفت إلى جواره في أشد المحن وساعدته بأقصا ما أستطيع، وهو لم يتردد في أن يتسلل إلى فراشي ويهتك عرضي، وهي . .

هي التي وهبتها كل ما أملك ومنحتها قلبي واسمي وحياتي ومالي، فلم تصن شرفي وقادت رجلا آخر إلى غرفة نومي وأسلمت له جسدها برضاها لتلطخ شرفي وكرامتي بالعار، حقا، لا شيء أحقر من صديق خائن سوى زوجة خائنة

هل هذه هي الصداقة عنده، أن ينتهز وقت غيابي ويتقرب إلى زوجتي؟ لم؟ ألم يكن أمامه نساء أخريات؟ ألم يكفه النساء اللاتى يفجر بهن؟ لماذا لم يحب أو يتزوج امرأة أخرى، كنت سأسانده بكل ما معي من مال، بدلا من أن يطعنني في ظهري وفى شرفي، لم لم يترك لي حياتي المستقرة؟ التي أتاها من القواعد فهدمها وجعلها أطلالا بسوى الأرض وصرت أنا رسما من خيال أين تضحياتي من أجلها طوال السنين الماضية، مهرها الذي تحملت الدين من أجله وجمعته بالكد والعذاب، وتعبى وعملي الذي لا ينقطع حتى ألبى لها كل ما ترغب، ألم أكن زوجا مخلصا وعاشقا حنونا؟، لم تزوجتني إن كانت ترغب في رجل آخر، حتى وإن كرهتني، ألم تكن تستطيع الطلاق لتتزوجه بدلا من أن تدنس عرضي وتقود كرامتي إلى المنحر

من يدرى ماذا كان يحدث في وجودي معهما حين ألتفت وأعطيهما ظهري، ربما كانا يتبادلان نظرات الشوق واللهفة ويتغامزان ثم يبتسمان لي حين أستدير إليهما، يا ويلى، وكأنني أسمع كل ما دار بينهما في غيابي من أحاديث هامسة ومن ضحكات ومن لمزات وعبارات الغزل التي يتلوها عليها، وابتساماتها المستعارة التي تتصنعها أمامي قطعا كان له منها النصيب الموفور، وهذه اللهفة حين أودعها بقبلة وأذهب إلى عملي فتغلق الباب خلفي لتبدأ اتصالها به، المرأة التي تبيت بين ذراعي في الليل حين أوليها ظهري تهرع إلى رجل آخر لتلقى نفسها بين ذراعيه، لا أدرى ما الذى يضطرها إلى أن تأكل معي من نفس الطبق وتنام إلى جواري على نفس

السرير وقلبها وعقلها معلقان برجل آخر، كل هذا من أجل المال؟ حتى لا تخسر ثروتي؟ فاختارت رجلا للحب وآخر للإنفاق، يا لهواني، هل كانت تنفق عليه من مالي؟ هل اشترت له هدية يوما ما؟ من أين أتت بالمال وكل ما تملكه من مالي، وهبتها إياه بالحب وهي تمنحه إياه بالخيانة، أوهذا أنا؟ لم أكن سوى خزينة تنفق منها وتجزل منها العطاء لأهلها ولعشيقها، كيف استطاعت إذا أن تقترب منى أو حتى تنظر في عيني، ألم تستح أو تخجل من نفسها، أخبريني يا ذات الصون بأي ضمير كنت تسلميني جسدك كالبغي ومشاعرك مع غيرى، أخبريني كيف جمعت بين رجلين في آن واحد، كيف كنت تهدين جسدك إلى رجل في النهار وتعيرينه آخر بالليل، ألم يكن في حياتك شيء سوى الرغبة؟ وأنا؟ أنا ماذا كنت؟ أخبريني ما معنى الزوج عندك؟ أهو جسد رجل وصرة من المال؟

ويحي، من أخاطب الآن وقد رحلت، طعنتني ودنست عرضي وأخذت ما استطاعت أن تجمعه من الحلى والمتاع ورحلت، وربما يرحل معها ليتمتعا بمالي ويتركاني انتفض كالذبيح مقطوع الرأس

لم يقطع أفكاري سوى باب الحديقة يهتز ببطء، ظننتها أتت لترى ضحيتها لتطمئن أنى لم أمت ولو من أجل سنين عشناها معا أو حتى لتطلب منى الغفران والصفح، ظننت أن لها ضميرا يتألم ويؤنبها، واهتز الباب الخشبي القصير عدة مرات ببطء ثم دخل الكلب

كان المسكين يدفع الباب في ضعف ووهن وهو يجر سلسلته الحديدية ويعرج على يدين وقدم واحدة، وهيئته المزرية يرثى لها وتنبئ أنه رأى الويل حتى يعود إلى المنزل ،فرجله اليسرى كانت مكسورة وملتوية بشدة وهى سبب هذه العرجة في مشيته، وجسمه كان مثخنا بالجروح وعليه آثار من الدماء والحروق، ربما وجده أحد بعد أن تركته مقيدا في مستودع النفايات بلا طعام ولا ماء فأشفق عليه وفك قيده، واضطر أن يخطو فوق حطام الزجاج وأنصال الحديد ويمر بين النفايات المحترقة وألسنة اللهب،

وتحمل المسكين كل هذه الأهوال ليعود إليّ مرة أخرى، وفى بطء شديد أخذ يقفز في مشيته وهو يلهث بشدة ويقترب منى خطوة خطوة، حتى اقترب منى ونظر إليّ نظرة يملؤها الألم والضعف وكأنه يخبرني أنه قد أدى ما عليه وأتم واجبه حين عاد إليّ مرة أخرى، تذكرت كم كنت قاسيا معه حين كنت أركله في صدره وبطنه بعنف حتى يبتعد عنى ويرحل، نظرت إليه بإشفاق فاقترب منى حتى وقف أمامي لحظات، مسحت على رأسه فتمسح بساقي ثم رقد عند قدمي وأخذ يلهث بشدة ثم نظر إليّ مرة أخيرة، وبدأ الألم يتجلى في عينيه وعلى وجهه، ثم أغلق عينيه ببطء وتوقف عن اللهاث

obeikan.com

obeikan.com

هشام فايز

http://www.facebook.com/heshamauthor

obeikan.com

obeikan.com